محراب آدم

رواية

لمياء شرف

دار العلوم
للنشر والتوزيع

اسم الكتاب : محراب آدم ـ رواية
لمياء شرف
طبعة أولى : ٢٠١٨
التنسيق الداخلي : رفعت حسن سيد

دار العلوم للنشر والتوزيع

هاتف : ٠١١٤٤٧٦٤٠٠٠

٠١٠٦١١٦٠٩٨٨

الموقع الإلكتروني : www.dareloloom.com
البريد الإلكتروني :
daralaloom@hotmail.com
Facebook.com/dareloloom
Twiter: @dareloloom
جميع الحقوق محفوظة
رقم الإيداع : ٢٥٥٤ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي : ١ـ٥٥٣ـ٣٨٠ـ٩٧٧ـ٩٧٨

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأى **دار العلوم للنشر والتوزيع**

يمنع نسخ أو استعمال أى جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافى والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بأية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

جدران البيوت تحمل بين مسامها رائحة البشر، خطايا كذبهم وصدق أفعالهم.

و خلف النوافذ أسرار. . . لا نرى منها إلا ما يكشفه الزجاج الرمادى حين تتساقط قطرات من حبات الندى على أتربة الماضى المتراكمة في ليلة شتوية فتمسح في طريقها بعض الغيمات الضبابية. . . ونجد أعيننا شاخصة.

ونذهب في اللانهائية حيث براح الكون في المدى البعيد وننتبه لمؤشر نبضنا وندرك أنها الحياة وأن أرواحنا مازلت تسكن الأرض ولم يحن وقت الرحيل بعد.

إنها الدنيا!!

الدنيا تلك الآفة التى تفسد الروح فتجعلها شيطانًا مريدًا يسعى في الأرض فسادا من أجل الحياة.

وعند بزوغ شمس كل صباح نجد أشعتها تسطر خطوطا خافتة على النافذة، وتمتد أطراف أيدينا نحو الزجاج ببطء ونمسح قطرات الندى. . وتستيقظ أحلامنا ونكتب ذكرياتنا في عدة أحرف تتلاقى فتسكن القلب.

ونتنفس الصعداء حين نرى الجدران تحتفظ بعشق ماضينا الكامن بين الشروخ.

هذا الماضى الراسخ بخلايا الجسد كالوتد.

وهناك. . . . في مكان ما تتناثر قطع من الزجاج المتهشم مع تهشم أرواحنا الهشة حين نعود بأقدامنا إلى المأوى والسكن إلى. . . . جميلة و. . . . . ولكن كل الخبايا سقطت خلف نافذتى الخشبية، تلك النافذة التي احتفظت بخبايا النفس وشرودها رغم تآكل حوافها الممتدة من أعلى بالسقف منتهية بالقرب قليلا من سطح أرض الشارع أو الطريق، هذا الطريق الذي نسير فيه ونسعى بغير حيلة، فلا قوة لنا إلا أن نخضع للقدر الذي لا مفر منه إلا بالدعاء.

حقا لقد أتينا الدنيا بلا حيلة لنا في لحظات تنساها الذاكرة تحت صنبور الماء فترحل اللذة ويبقى الشقاء.

ولقد أتيت أنا آدم إلى هذه الدنيا.

لا أعرف لماذا؟

ربما هناك رسالة من خلال خطواتى على الأرض وربما ضاعت منى الرسالة، ولكن من المؤكد أن حياتنا بها سلسلة من العبر والعظات لا نلمسها ونستشعر وجودها إلا بعد سلسلة أخرى من الخفقات والأخطاء.

وكلنا بالخطيئة نسير وكلنا نطلب العفو، وبالعفو نعيش!

ولكن من يستطيع أن يغفر ويسامح؟!

هذا هو السؤال الذي يجب أن نطرحه جميعا على أنفسنا ولعلنا نجد الإجابة!!

وقد شهدت نافذتى الحكاية. . . .

نافذتى يبدو عليها قدر كبير من العفونة، فأثر ماء المطر عليها جعل لونها مخضراً كطحلب يعيش في مستنقع ضحل يضم روث الحيوانات الهائمة على جدرانه من القطط والزواحف السابحة في ظلمات الليل الحالك لبيت قديم ضيق مساحته صغيرة لا تتعدى ال٥٠ متراً.

فكان لا يطرق الضوء جوانبه إلا في ساعات النهار الأولى، حيث تتسلل إليه خيوط ذهبية رفيعة من أشعة الشمس في الصباح الباكر فتسرى في جنبات جدرانه المتهالكة من أثر الرطوبة كسريان النهر في شروخ الأرض الجدباء.

وهنا في هذا الدرب الضيق بحى الجمرك في الإسكندرية، حيث الأزقة والحارات شديدة التلاصق والمتكدسة بالسكان كان يوجد بيتى، هذا البيت الذي أحبه رغم ضيق نفسى، فيه فلا مجال لتنفس الأكسجين إلا بالمكوث لساعات طويلة على شاطئ البحر بمنطقة بحرى.

وكما كان البحر صديقى الذي أسرد له أحزانى، كان لهذا البيت

رباط وثيق مع روحى، فهو الشاهد على الحكاية وعلى ألوانى المتدفقة في زواياه التي صارت تسكنها خيوط العنكبوت.

هذا البيت المكون من طابقين. . . الطابق الأول

بمستوى الشارع له باب خشبى كبير من ضلفتين مدهون باللون الأزرق الفاتح مثل صفحة السماء بوقت العصر. .

منقوش على سطحه وردات بارزة بينما جوانبه مزخرفة برسوم هندسية وفى منتصف الباب ثبت مقبض كروى مصنوع من الحديد الصدئ.

هذا الباب يفتح على زقاق ضيق يسمح بالكاد بمرور عربة صغيرة خشبية (كارو) يجرها حمار تتدلى أذناه لأسفل مثل معظم سكان الحارة عندما تدلى جيوبهم خارج سراوليهم في آخر أيام الشهر بسبب الفقر وشدة وحشته.

أما الطابق الثانى للبيت عبارة عن سطح علوى بلا سقف مكشوف للسماء ومحاط بسور منخفض ارتفاعه قد لا يتعدى ال ٣٠ سنتيمتراً مبنى من الطوب الأحمر المتهدم منه أجزاء كثيرة، مما جعله يبدو مثل الخط المنكسر أو كأنه سلم موسيقى تتفاوت نغماته مع قفزات عدد لا بأس به من الدجاجات الهزيلة فوقه، وهى تصيح من الجوع تارة وبين انطلاقها في الحارة بحثا بحوافرها الدقيقة عن الطعام بين أكوام القمامة

ومخلفات الجيران من الأطعمة المتناثرة في قارعة الطريق، حيث تفتش عنه هنا وهناك تارة أخرى.

وذات مساء انطلقت صرخات مدوية بطريقة هيستيرية من وراء تلك النافذة لتبدأ الحكاية عندما..

اندفعت بثينة ناحية الشباك تصرخ وتنادى على المارة والجيران

أغيثونى يا ناس أغيثونى.. من هذا الولد الفاسق والفاسد اه يا حظى السيىء.

لقد تعبت وضاق به صدرى، أغيثونى من جنونه فأنا أخشى على نفسى منه.

خرجت الكلمات على لسان بثينة كالصدمة في أذن كل من سمعها.

فكان الغضب الواضح على وجهها مثل الشرر، وعلى لسانها كانت الشتائم تندفع كالقذائف هنا وهناك فتسرى وتنتشر كانتشار النار في الهشيم.

وتعالت صيحات بثينة بين جنبات زقاق (السلطان)، ويالها من مفارقة كبيرة بين اسم هذا الزقاق المضاد والمختلف كثيرا عن حال أهله وما يعانيه سكانه من بؤس وفقر مدقع وشقاء.

وعلى صوت صرخاتها وإلحاحها كالطبل على الأذن.

هرولت ثريا تفتح نافذة بيتها المتهالك هو الآخر والمقابل لنافذة بيت بثينة وهى ترتدى قميصًا طويلاً مصنوعًا من الساتان الذهبى اللامع فزاد لمعانه عند سقوط ضوء النهار عليه وزادت جاذبية ثريا عندما تدللت بإزاحتها خصلة طويلة من الشعر ذات لون أصفر فاقع وتميل نحو البرتقالى تدلى بعفوية على جبينها وبرفق واضح من أناملها الملساء قامت بضمه خلف أذنها بينما الباقى من شعرها كان مزمومًا برباط حريرى مزركش بألوان زاهية مطبوعة أطرافه ومطرزة بوردات من الخرز.

و بعينيها النجلاوين نظرت في كل جوانب الزقاق تتفحص المارة من الجيران وترمقهم بنظرات متعالية يكسوها الكبر.

فوجدت الكثير من الجيران يفتحون شبابيك بيوتهم، وبعضهم يهرول ناحية الصوت فابتسمت خلسة وأمسكت بقميصها وشدته حول خصرها النحيل، وأسندت ظهرها بجسد ملتو على زجاج النافذة فبرزت قسماته ونادت بثينة ماذا بك؟ فلم تستجب بثينة للنداء فتحركت ثريا بخطوات لينة وعلى حافة جدار النافذة اتكأت بذراعها الأيمن المكتز باللحم والمقيد بأساور من الذهب الصينى (القشرة) والتى تحيط بذراعها من معصم يدها إلى بداية الكوع فانحرفت عيون المارة ناحية صدر ثريا العارى، والذي تدلى على الناس بالشارع كحبات الرمان من شجره قطوفها دانية ؛ فبدا بلون برونزى من أثر شعاع

الشمس الساقط عليه كثريات الذهب، وبنظرة يتقنها الخبثاء ويملؤها الشغف بالرغبة من عين ثريا نحو عاشقى الجسد من البلهاء.

نادت بميوعة واضحة يا اابثينة. . . يا بوثيينة. .

ما بك يا حبيبتى ماذا حدث؟.

فأخذت بثينة تصرخ وتولول وتضرب بيدهاعلى صدرها مرات متكررة دون وعى حتى التف حول نافذتها عدد كبير من المارة والجيران وهم في ترقب لسماعها شغوفين بمعرفة سبب صراخها، بينما كان البعض الآخر من المارة مشغول عنها بالنظر إلى صدر ثريا المتدلى عليهم من جهة النافذة بأبصار شاخصة وأجساد متحجرة، يشتهون جسدها ولعق حباتها المستديرة الأرجوانية بشفاه الرغبة.

وبتراتيل منغمة ودموع مصطنعة تطلعت بثينة في وجه ثريا.

تحكى لها مشكلتها وبصوت مبحوح قالت:

الولد الحقير(آدم)

ابن زوجى سرور. .

تحملت منه الكثير والكثير. وتنهدت تنهيدة طويلة ثم أخذت شهيقا وأخرجت زفيرا حادا.

قائلة:

لقد فاض بى الكيل يا ثريا .

لقد نفذت طاقتى وأصبحت غير قادرة على الاحتمال .

أنا تعبت من فساد أخلاقه وقلة أدبه وعدم احترامه لى .

غير رسوماته الخليعة معدومة الأدب المنتشرة في كل ركن من أركان البيت هنا وهناك ، أينما تحركت وجدت رسوم الكفرة والفجرة وقد حاولت كثيرا أن أقنع نفسى بالتحمل لعله ذات يوم يساعد والده الفقير في الإنفاق على البيت .

وسكتت ثريا عن الكلام لبرهة قامت فيها بمسح سيل من الدموع الجارف على خديها .

ثم أستكملت حديثها والوجع يسيطر على قسمات وجهها .

وقالت : فوجئت اليوم صدفة وأنا أقوم بتنظيف البيت كعادتى باحتفاظة بصورة لى قد خبأها بين ملابسه مع رسومه الخليعة وصوره القذرة ، ومن بين تلك الرسوم وجدته رسم وجهى بجسد عارٍ .

ردت ثريا بلهفة : وما المشكلة أن يرسمك آدم؟

إنه يرسم كل أهل الزقاق وكلنا نعرف ذلك عنه .

قالت بثينة والغضب يكسو وجهها : لا يا ثريا ، فهو لم يرسمنى كما اعتدنا على رسوماته من قبل ، ولكن هذا الفاشل الضائع رسم

جسدى عاريا من خياله طبعا استعان بصورة وجهى ورسمهـا ووضـع بخياله جسدى كعارية!!!

فشهقت ثريا وهى تقول : عاارية!

كيف . . كيف؟

فلم تجب بثينة على تساؤلها بل استمرت في البكاء وهى تقول :

لن أسمح بوجود هذا الولد، مستحيل أن يسكن معنا بعد هذا اليوم في نفس البيت . . . إنه أمر مستحيل .

واستمرت بثينة في الولولة وندب الحظ وهى تتساءل والدهشـة تكسـو وجهها .

هل هذا جزائى بعد تربيتى له وهو طفل لم يبلغ التاسعة من عمره؟هل أحد يصدق هذا يا كل أهلى وأحبابى . . . .

وظل لسانها يردد دون وعى هل أحد يصدق هذا؟!!!

كاد عقل بثينة أن يصاب بالجنون بسبب رسم آدم لها عارية

فتجدها تكلم نفسها وتحاسبها عن السبب الذي جعل آدم يرسمهـا في ذلك الشكل المخزى والفاضح مندهشة أحيانـا!!!وغاضـبة في أحيـان أخرى .

ونطق لسانها بكلمات الحسرة والندم على مجهودها الضائع في تربيته فتجدها تهذى شاردة العين .

ولكن لم يعلم ما بداخلها غير الله ، فهل كان بقلبها فرحة المنتصر؟ فأخيرا ستتخلص من هذا العبء الذي طالما أجهدها ولكن لم تكن هناك فرصة مناسبة للخلاص منه .

وها هى الفرصة أخيرا قد سنحت لها كى تتخلص من وجود (آدم) في بيتها .

بكت بثينة شديدا حتى أنك تندهش من حقيقة أمرها ، هل هى حقا حزينة من فعل آدم أم سعيدة لأنها ستتخلص منه؟ حالة من التناقض النفسى التي قد تصيب الإنسان في أوقات كثيرة .

(فعندما تخذلك الحياة تبحث عن الانتصار ولو في هزيمة من تحب!!)

أكملت بثينة سرد الحكايات وهى تسأل هل هذا جزاء إحسانى؟

فبعد أن أطعمته بيدى وهو طفل فكنت أمنع نفسى من لقمة العيش وأطعمه من قوتى وأغسل ملابسه وأنظفها بيدى وأسهر لراحته وهو يذاكر يقابل احسانى معه بهذا الفعل الشنيع ، الفاضح لا يصح ما فعلته أبدا يا آدم!!!لا يصح!!!

حاولت ثريا أن تهدئ من روعها وتختلق بعض الأعذار له .

ولكن آذان بثينة كانت صماء لا تسمع سوى حديث نفسها الداخلى وهى تردد :

لقد كنت أخاف عليه وأرعاه، كنت له أمًّا بحق فكم من مرة كنت أداويه وهو مريض وجسده ساخن ودرجة حرارته مرتفعة مثل النار!

أنا من سهرت بجواره أداويه بالكمادات الباردة ليالي طوال حتى يطمئن قلبى عليه وتنخفض درجة حرارتة كيف يا آدم؟

أنا من أهلكت روحى من أجلك أثناء دراستك فكنت أعد لك الطعام والشاى.

وبنبرة حزينة من القلب، وعقل مغيب لم ينتبه لوجود الناس حول النافذة متلهفين لسماع المزيد من حكاياتها أخذت تتساءل :

كيف نسيت يا آدم أن أباك سرور كان يرفض وبشدة التحاقك بكلية الفنون بعد نجاحك بالثانوية العامة؟

الكل يعلم أننا فقراء ولا نستطيع الإنفاق عليك ولا يمكننا تحمل مصاريف تلك الكلية الباهظة، ولولا محاولاتى مع والدك بكل طاقتى وبقدر استطاعتى ما كان وافق على هذه الكلية ومصاريفها.

وأثناء شرحها للمجهود العظيم تجاه آدم.

شرد آدم في حال والده سرور ضاحكا كالأبله وبعبارات متقطعة أخذ يهذى هذيان المغلوب.

فالكل يرى نفسه ضحية وكأن الحياة دائما هى الفاعل ونحن مسلوبى الإرادة المفعول به.

فهذا سرور الرجل البسيط الذي يعمل بالبوفيه في المحكمة.

يعد الشاى لهذا ويشترى الإفطار لذاك خذله آدم ذات يوم بالتحاقه بكلية الفنون الجميلة، كان يتمنى أن يراه محاميًا مثل ابن عمه أستاذ ناصر وغيره من المحامين الذين يراهم يوميا بالمحكمة ويرى فيهم ابنه آدم..

آدم الهزيمة والخذلان في حياته، تلك الحياة التي كان يخشاها ويخاف منها، فمع كل صباح يبدأ الأداء التمثيلى لمسرحية هزلية اسمها الحياة مثله مثل الكثير منا يعيش دور البطولة، والواقع هو أقل بكثير من أن يكتب اسمه في سجل الوفيات.

وآدم لم ير نفسه يوما كما كان يحب والده ولم يتمكن من لعب البطولة في تلك المسرحية، فهو يعانى من الصدق! أو هكذا يرى نفسه فلا أحد يعترف بعيوبه.

فكثيرا ما حلم سرور بوجود آدم بين قاعات المحكمة مرتديا الروب الأسود يصول ويجول.

بالمرافعات محققا النجاحات كان يحلم حلم أبوى بسيط كما كان يخبرأدم دائما بحلمه .

ولكن هل حقا خذله آدم وخذل تلك الشيبة التي بدت واضحة في رأسه؟

فلم يراعى آدم كبر سن سرور وأنساق لرغباته في تحقيق طموحاته الخاصة فكثيرا ما أخبره سرور بأمنياته فيه خاصة عند كل مرة يمد فيها آدم يده لأبيه ليطلب منه النقود من أجل دراسته بالكليه!!! وكثيرا ما أهمله آدم متعمدا أن يثير غضبه وثوراته .

كان الأب سرور متخوفا على مستقبل ابنه وكان الأبن جامحا لا يرى إلا نفسه عازفا بالفرشاة سنفونيات من الأنا التي تحملها الأب بكل صبر وجلد لعل وعسى أن يكون لأبنه مستقبل يفتخر به أمام الجميع وأمام نفسه فلم يكتفى سرور بالعمل بالمحكمة بل واصل عمله ليلا بمكتب أحد المحامين المشهورين ليزود دخله المالى .

وبالرغم من الحزن الذي كان يسيطر على قلب سرور في كل مرة يرى فيها من هم في مثل عمرآدم يتدربون ويسعون لتحقيق أحلامهم في مكاتب المحامين مقارنة بابنه المشغول بالألوان كطفل مهووس لم ينضج عقله بعد ولم يدرك أن الحياة مليئة بالمصاعب الشديدة وأن ما يدرسه لا قيمة له وما هو إلا عبث .

إلا أنه كان يلبى كافة احتياجاته رغم الغيظ المكتوم داخله، في كل مرة آدم يطالبه بالنقود ليس من أجل الدراسة فقط ولكن من أجل التأنق بأفخر الثياب والعطور.

ورغم خلو البيت من الطعام مرات عديدة فإن سرور لم يفصح عما بداخله إلا مرات قليلة جدا تكاد لا تذكر متمنيا أن يتحول أمر ابنه ويحس ويشعر بجهد والده وتعبه من أجله، وكثيرا ما راوده الأمل بأن يراه رجلاً بكل معاني الكلمه يقف إلى جواره يساعده على مصاريف الحياة ولكنه فقد الأمل بسبب جحود آدم المستمر يوما تلو الآخر حتى صار آدم بالنسبة لسرور مجرد سنوات ستمر حتى ينتهي من دراسته وبذلك يكون قد أكمل معه رسالته ودوره كأب ولكن . . .

هل الإنفاق فقط هو دور الأب الرئيسى في الحياة؟!!

وجاء هذا السؤال على لسان الشيخ محمد عندما كان ذاهبا إلى المسجد لإقامة الصلاة فسمع بالحكاية من الناس وفهم الموضوع وعندما بادر برأيه لحل المشكلة عم الصمت وبدأ ضجيج الناس يهدأ عندما أتجه الشيخ محمد ناحية بيت بثينة بخطوات يحترمها ويجلها جميع سكان وأهل زقاق السلطان.

وتحت نافذتها وبنبرة صوت رخيم يحمل بين طياته وقاراً وهدوء عالم جليل يحترمه الجميع نادى عليها ثم أمرها.

أغلقى نافذتك يا بثينة وسأجلس مع سرور اليوم وأتكلم معه .

فالابن يحتاج بعض التربية وسأحل الأمر إن شاء الله فلا داعى لكل هذا الضجيج ، آدم ابننا وبالتأكيد لم يقصد الإساءة إليك ولكنه سوء تصرف لا أكثر . . . ثم دعا الناس للصمت قليلا وطلب منهم أن يرحلوا إلى بيوتهم وأن يذهب كل صاحب عمل إلى عمله ، ثم نظر إلى بثينة معاتبا لها قائلا بصوت خفيض .

ما تفعليه خطأ كبير ، هيا أدخلى إلى بيتك وأغلقى نافذتك .

امتعضت بثينة وتحولت ملامحها إلى كتلة مشتعلة بالنيران وصاحت فيه ماذا تقول يا شيخ محمد؟ ! !

هل بعد كل ما تحملته من أجل تربيته يصل به الجحود ويرسمنى عارية . . . عارية يا مولانا ، هل تسمع جيدا ما أقوله . وبلغة تملؤها السخرية سألته باستهزاء .

هل هذا هو الدين يا شيخنا الجليل؟ ! !

لقد كنت أحسبه السند لأخته المريضة فأتحلى بالصبر واطمئن نفسى بأن الله وهبني ابنًا لى ليعوضنى بعد استئصال رحمى .

وفجأة كأن تيارًا كهربائيًا سرى بجسدها فصعقها وانتفضت تصرخ من جديد :

أبدا . . مستحيل أن يعيش معنا هذا الملعون في البيت ، فلا مكان له معنا من الآن فصاعدا .

فبدا على وجه الشيخ محمد الغضب لعدم احترام بثينة لكلامه ولكنه لم يفصح بكلمة واحدة بعد ما رأى على وجهها من علامات التأفف والجهل والسخرية وعدم احترامها لمكانته بين أهل الحارة .

فأومأ برأسه قليلا نحو الأرض وأخرج من جيب جلبابه سبحة فيروزية مطعمة بالفضة مستغفرًا الله وخاصة بعد أن وقعت عينه على جسد ثريا .

ثم أستكمل سيره نحو المسجد تاركا بثينة تسترسل في هجومها على آدم وهى تردد :

الولد أصاب عقله الجنون يا ثريا .

ولكن ثريا صمتت وأطبقت فمها ولم تنبس بحرف وكأنها تفكر في رحيل الشيخ محمد دون مقدمات .

وبسرعة غريبة أدارت ظهرها عن بثينة عند سماعها صوت أذان العصر من المسجد الموجود على ناصية الحارة بالتقاطع مع الشارع العمومى وفكرت قليلا .

ثم التفتت تغلق نافذتها وهى تعتذر لبثينة وتخبرها بصوت عال أنها نسيت الطعام الذي تطبخه على النار لمدة طويلة ولو تركته مدة أطول من ذلك سيتحول اللحم في الطنجرة إلى قطعة من الفحم ودون حتى أن تنتظر رد بثينة عليها كانت قد أوصدت نافذتها جيدا.

ولكن حقيقة الأمر أنه برحيل الشيخ محمد غاضبا خشيت ثريا أن تغضبه هى الأخرى باستمرار كلامها مع بثينة وسبهما لآدم.

ونادت ثريا على ابنتها شمس تخبرها.

هل سمعت ماحدث.. إن بثينة المجنونة أغضبت الشيخ محمد وهو السند لنا بين أهل الزقاق ولولا دفاعه عنى بين الجيران وأهل المكان لأكلونى بأسنانهم، نعم هو نصحنى كثيرا ومازال ينصحنى أن أمتهن أى عمل آخر غير الغناء بالأفراح تجنبا للقيل والقال بسبب عودتى متأخرة وملابسى المكشوفة، وبالرغم من ذلك كله يدعونى للهداية ويساعدنى بالمال الذي يجمعه كل شهر من أصحاب الخير والجود الذين يعرفهم.

ياليتنى أجيد أى عمل غير الغناء يا شمس!

كانت شمس تستمع لكلام أمها جيدا وبداخلها رغبة شديدة أن تتوقف أمها عن الكلام أو ربما عن الغناء في الأفراح الشعبية، ولكن شمس كانت مشغولة برواية رومانسية تقرأها بشغف، غير أنها كانت

مكتوفة الأيدى فلا تستطيع أن تفصح عن رغبتها في أعتزال ثريا للغناء وذلك لعلمها جيدا أنه المصدر الوحيد لحصول أمها على المال، بعد أن فشلت في عملها بالبيوت كخادمة وتسلل لجسدها المرض من المجهود الضخم الذي تبذله في التنظيف.

لم تهتم ثريا بصمت شمس واتجهت نحو صورة زوجها المعلقة على الحائط وكلمته والحسرة تملأ قلبها قائلة ليتنى أجيد عملاً اخر ولكن مصاريف الحياة كثيرة ونظرت إلى جمالها بمرآة كبيرة مجاورة للصورة وقالت ساخرة لم يشفع لى هذا الجمال لأتزوج بآخر فمن هذا الرجل الذي يتزوج بأرملة لا تملك قوت يومها، ولديها ولد وبنت في حاجة للمصاريف. . لعنة الله على الفقر والفقراء أمثالنا!!!

ورجعت ذاكرة ثريا للوراء عدة سنوات من العمر تتذكر فيها زوجها عازف القانون الذي كان يحلم بأن يكون من أشهر عازفي مصر ولكن المرض كان أسرع إليه من أحلامه، واستيقظت ذاكرة ثريا سريعا من غفوتها على وقع صيحات بثينة المستمرة والتي كانت تدق في مسامعها رغم احكامها إغلاق النافذة.

وبينما كان الشارع يعج بالناس.

استمرت بثينة في حالة عجيبة من الولولة تنعى فيها حظها السيئ الذي أوقعها بهذه الزيجة، تهمهم تارة وتصرخ تارة أخرى.

وظلت بثينة تتكلم وتسترجع حكايات من الماضى، ومع كل حكاية يزداد حول نافذتها المارة يستمعون ويتشدقون بعبارات المواساة ثم يرحل البعض ليأتى غيرهم، وبعد مدة طويلة تنبهت لوجود عدد هائل من الجيران وغير الجيران منهم من يهدئ من روعها ومنهم من يدق على باب بيتها لكى يضرب الولد الأحمق، فما كان منها إلا أن صرخت فيهم بغباء كى يرحلوا عنها ويتركوها لحالها ويعودوا لبيوتهم، فابتعد عن نافذتها الجميع وهم يلعنون طباعها الحادة وتحولها كنمرة شرسة بينما ظلت تكلم نفسها: أنا سوف أنتظر هنا بالنافذة إلى أن يعود سرور من عمله وأرى ماذا سيفعل مع هذا الولد؟!!

وبتحد غير مفهوم لوجود آدم في البيت ضغطت على أسنانها وقد أمتلأتً روحها بالأنا كزوجة أب لم تسع يوما لمساعدة هذا الفتى في أى أمر يحتاج إليه، فلا هى قدمت له أى معروف أو جميل ولا أطعمته أو قامت بمداوته ذات يوم كما تدعى دوما الفضيلة؛ بل الغريب في الأمر أن كل حديثها كذب في كذب حتى سعيها لكى يلتحق بكلية الفنون الجميلة ليس حبا فيه؛ ولكنها وسيلة لإقناع الأب سرور بفشل ابنه ورغبة منها ألا يحقق هذا الفتى أى نجاح يحتسب له بعد التحاقه بكلية لا مستقبل لها في ظل مجتمع أهله من الفقراء والجهلاء كهذا المجتمع الذي نشأ آدم فيه وترعرع.

كان شعور الغيرة المسيطر على بثينة لأنه ابن غريمتها رغم رحيلها هو ما يدعوها للقسوة عليه، فالبرغم من رحيل والدته جميلة منذ أكثر عن ١٢عامًا فإن حب سرور لجميلة كان كبيراً بل كان حبًّا يسيطر على كل مشاعره كلما جاءت سيرتها أو الحديث عنها ولو صدفة لم يختلقها، وكثيرا ما كانت ترى في عينيه لمعان المحب العاشق، تلك اللمعة التي كثيرا ما فتشت عنها أثناء كلامه معها ولكن كيف؟ وبثينة بالنسبة له مجرد الزوجة التي تعد له الطعام وتقوم بواجباتها نحوه.

مجرد دمية يلهو بها قليلا ويضعها جانبا بمجرد النظر إلى صورة جميلة التي ظل محتفظا بها بجوار فراشة رغم رحيلها لسنوات طوال وبصوت خافت.

وبعد صراع نفسى شديد ظلت تعيش فيه بثينة لسنوات.

قالت: يا أنا اااايا جميلة في هذا البيت مستحيل أن أعيش مع نبضها الحى المسمى آدم تحت سقف واحد مرة أخرى!!!!

وقامت بثينة بإغلاق نافذتها بعد أن تناهت إلى سمعها همهمة البعض وهم يتكلمون فيما بينهم بعبارات الغضب بسبب مؤامرتها كزوجة أب والبعض الآخر يلعن عصيان آدم وجنونه، بل أخذ بعضهم يضرب كفًا على كف ويلعن الزمن الغريب الذي جعل هذا الولد

الفاسق يتجرأ لهذا الحد من الفجور على من قامت بتربيته وهو طفل حتى صار شابًا يافعًا .

وبعد مرور تلك الثورة الهائجة من الشتائم واللعنات والهمهمات وعلامات الدهشة المرسومة على الوجوه انطلق كل فرد في حياته كل حسب وجهته هائما على رزقة وقوت يومه .

ووقفت بثينة وظهرها للنافذة تبكى وتمسح دموعها بيدها الخمرية والمحفور عليها علامات الشقاء والتعب لسنوات قد خطها الزمن رغما عنها .

وبعد برهة من الزمن استعادت صلابتها من جديد واتجهت ناحية آدم تصرخ فيه وتتحداه وتركله بقدمها في ساقه دون أن يصدر منه أى رد فعل ، وبيدها كانت تلكمه على ظهره أثناء حركتها ذهابا وإيابا في البيت فتراها تلملم في لوحاته المنثورة بين جناباته الضيقة وقد صبت ثورة غضبها وغيظها المشتعل بتمزيق وتقطيع تلك اللوحات بعنف ، ومع كل ورقة كانت ترميها عبر النافذة التي فتحتها من جديد كانت تتمزق فرحة عيون آدم بلوحاته الراحلة وهو يراها وريقات متناثرة في الفضاء ، ورحلت أحلام آدم .

مع رحيل رسوماته المتساقطة على أرض الشارع تدهسها أقدام المارة هنا وهناك بأحذيتهم المعلقة بالتراب وروث القطط التي كانت تموء في

الحارة كموسيقى حياتية يومية، واختفت سعادته التي كان يحسها مع ريشته وألوانه.

وبعد أن ضاعت الألوان ودُهست الوجوه المرسومة مع أحلام آدم التي اندهست بنظرت بثينة إليه تارة بسهام الغيظ والغل وتارة أخرى تلعنه بأقبح الألفاظ، وعلى لسانها أبشع الشتائم التي توجها في وجهه المنحوت بخطوط الأنكسار.

ولكن آدم هذا الشاب طويل القامة ذو البشرة البيضاء وصاحب العيون العسلية ظل صامدا أمام ثورات بثينة، ولم يتحرك له جفن بل كان مندهشا منها وصامتا بعد أن تحجرت الكلمات في حلقه اليابس حتى من شربة الماء، فجلس على الأريكة الخشبية التي اعتاد النوم عليها في الردهة الصغيرة للبيت والخالية من الأثاث إلا من مقعد خشبى قديم كان موجوداً بجوار الأريكة إضافة لبعض الوسائد المربعة والمحشوة بالقطن التي كانت ملقاة بعشوائية فوق حصيرة صفراء.

ومال جسد آدم منزويا ناحية الحائط متأملا طبلية خشبية كانت مركونة على شرخ بطول الحائط كشرخ قلبه المهزوم والمقسوم كضفتى النهر لدموعه التي أخذت تتساقط منهمرة لا إراديا على خده كطفل صغير لم يتعد عمرة لحظة فراق أمه ورحيلها عن الحياة وهو في الثامنة من عمره.

لم يجد آدم من يمسح دموعه سوى كف يده الغارق بالألوان وهو يتوسل إلى أمه بثينة بصوت مخنوق يعتريه الفزع والخوف.

ألا تمزق المزيد من رسوماته..

باكيا متذللا

أمى بثينة أمي بثينة... أرجوكِ لا تلقى برسوماتى في الشارع أعدك لن أكرر تلك الفعلة الحمقاء أعتذر لك.. سامحينى.. من فضلك سامحينى أمي بثينة.

واقترب منها خطوات وأمسك يدها يقبلها ويعتذر لها.

فدفعته بقبضة يدها في صدره الذي أبى أن يعلن عن غضبه بصرخة وجع، ووقع على الأرض الباردة كالبرودة التي أجتاحت أنامله رغم الجو الحار لصيف شمسه، وبعيدا عن أقدامها ركع على ركبتيه وانحنيت رأسه أمام جبروت بثينة وسقطت دموعه كما سقطت عزة نفسه من قبل آلاف المرات، وحفرت دموعه على الأرض ذكرى وجع واشتياق الأم وحنان يد كان يتخيل طبطبتها على كتفية المنحنى أمام أقدام بثينة وهى تدق بكعب نعلها الخشبي على الأرض دقات تحمل تهديداً ووعيداً فارتجفت أوصاله وانهزمت نفسه وبدت مقلتا عينيه مظلمتين ومغطاتين بأستار من الخذى والخذلان، وما أشد قسوة من خذلان الدنيا لك!!

حينها قد تشعر كأنك الماء بلا لون أو طعم وتستمر الحياة التي تعيش فيها بروح الهزيمة ويمر العمر كماء ينساب بين أناملك فلا تملك أن ترتشفه كله ولا بإمكانك أن تمسكه .

وامتزجت الدموع بالألوان المسكوبة على الأرض .

ورُسمت لوحة من العذاب الساكن في حياة فقدت شهدها ولم يسرِ في جسد آدم منها إلا طعم المر في مذاقها .

لم تلتفت بثينة لكل محاولات آدم لكى يثنيها عن تمزيق لوحاته ، بل زاد صراخها في وجهه ثم نادت على ابنتها يا ليلى يا ليلى . . . فهرولت ناحيتها فتاة لم يتعد عمرها الثالثة عشر بدت علامات الأنوثة واضحة على جسدها ولكن عقلها لم يتجاوز الخامسة ، كانت تحتضن عروستها اللعبة المصنوعة من قماش الدبلان الأبيض بين ذراعيها وتضمها نحو صدرها وبصوت ، ساذج وكلمات ثقيلة وبعقل لا يدرك ما يدور حوله

قالت : نعم يا أمي .

وبلهجة شديدة الصرامة أخذت بثينة تملى على ليلى أوامرها :

من اليوم لا أريد أن أراك تتكلمين مع هذا الولد . . ثم تغيرت نبرة صوتها إلى السخرية وهى تقول هذا الولد الذي اسمه آدم ، حقير ، وبغيظ ملحوظ في صوتها وتعابير قسمات وجهها صاحت أنه ولد

فاسد عديم الأخلاق ولو رأيتك تتكلمين معه يا ليلى سوف أعاقبك عقابًا شديدًا وسأحرق يدك بالشمعة وأقوم بقص ضفائرك.

وأستمرت بثينة في توجيه المزيد من التهديدات في وجه ابنتها ثم سألتها هل تفهمين ما أقول يا ليلى؟!

ارتجفت أواصر ليلى وقالت وجسدها يرتعش ولسانها يرتجف من شدة الخوف لا لا يا أمي لا أريد أن تحرقيني بالشمعة سأسمع كلامك ولن أكلمه أبدا. . . أبدا لن أكلم آدم أبدا.

وأمسكت ليلى ضفائرها المجدولة بشرائط من الستان الأبيض وضمتها بالقرب من وجهها الدائرى وأخذت تمسح دموعها وهى تنساب برفق على وجنتيها، ونظرت ليلى ناحية أخيها آدم وأخذت تدقق النظر في عينيه وكأنها ترسل له بوميض عينيها اللامعة رسائل تؤكد له فيها أنها ستظل تحبه، وكيف لا تحبه وهو الأخ العطوف الذي يأتى لها بالحلوى ويرسم لها العصافير التي تعشق اللعب معها، خاصة عندما يصطحبها معه إلى الحديقة في أول يوم العيد من كل عام.

وماذا تفعل ليلى لآدم وهى ريحانة من عطر الجنة مصابة بحالة داون (منغوليا) وقدرتها الذهنية بسيطة، لا تفهم الأم احتياجاتها بجهلها بل لا تكترث لوجودها من الأصل وكأنها عبء جاء إلى حياتها.

ليلى . . . هذا الماء العذب في حلق الضيق حين يفيض الكيل بآدم لا تستطيع أن تفعل من أجله شيئًا . . . . ولا حتى من أجل نفسها الواهنة المسكينة ! ! !

في ظل مجتمع فقير جاهل يلعن أمها بثينة مئات المرات ويحملها مسؤولية إنجاب تلك العاهة ناقصة العقل كما يراها كل الجيران والأقارب من حولهم، ماذا تفعل ليلى وهى بالكاد تدرك وجود أسرتها وأسماءهم .

وركن آدم بجسده ناحية الحائط جالسا القرفصاء على الأرض باكيا متذللا إلى بثينة بألا تخبر والده برسوماته، ولكن باءت كل محاولاته بالفشل وصارت بلا جدوى حتى بح صوته من التوسل وصارت دموعة هى الونس لأحزانه .

تأثرت ليلى بدموع آدم وأسرعت تجرى بجناح البراءة وذراعها يطير في الهواء كالفراشة ناحية أمها تمسك دميتها بيد وتشد أمها باليد الأخرى، واقتربت منها تهمس في أذنها بفطرة صادقة فخرجت كلماتها متقطعة :

آدم . . . مسكين . . . وطيب يا بثينة . .

انظرى يا بثينة أنه صنع لى تلك العروس الجميلة، وأيضا أحضر لى صوفًا لونه بنى وصنع لعروستى شعراً طويلاً مثل شعرى هذا . .

لماذا يبكى بشدة؟!!

أنا لا أحب آدم يبكى.

وأغمضت عينيها وهى تكرر عليها عبارة "لا أحب آدم يبكى.. لا أحب آدم يبكى"..... .

فأمسكت بثينة بكتف ليلى واقتربت من وجهها توبخها : سأحرقك بالنار حالا لو دافعت عن هذا اللعين، ابعدى عن وجهى في هذه الساعة يا مجنونة.

فسكن جسد ليلى مكانه وتصبب العرق من جبينها مارا بوجهها وبلل جسدها الضئيل جلبابها وسقطت الدمية من يدها على الأرض ورجعت بأقدامها النحيلة الحافية خطوات إلى الوراء وهى تنظر ناحية آدم برعب وقلق يساور نقاء وصفاء سريرتها.

ثم جلست ليلى على الأرض في صمت بعد أن أطبقت فمها وجميع حواسها طاعة لأمها.

ومرت ساعات اليوم بطيئة حتى رحلت الشمس وجاء الليل بظلمته الحالكة، وبعد أذان العشاء بقليل أسرع الجيران وانفتحت الأبواب وهرولت النساء نحو الشبابيك بعد سماع صوت سرور وهو يطرد آدم من البيت ويلعن اليوم الذي جاء فيه إلى الدنيا.

كانت توسلات آدم بائسة يائسة وتبكى لها القلوب.

وقد حاول بعض المارة من أهل الزقاق إقناع سرور بالعدول عن تلك الفكرة المسيطرة على رأسة وألا ينساق وراء الشيطان ويطرد ابنه من كنفه ورعايته، ولكن الغضب على وجه سرور كان أكبر بكثير من محاولاتهم، والتي لولاها ما انخفضت حدة اللكمات التي وجهها الأب سرور في وجه آدم، ولنال من الضربات المبرحة على جسده ما هو أكثر من ذلك بكثير، وتقبل آدم الإهانة أمام الجميع وكأنه في كابوس مرعب لا يعرف إلى متى سيستمر أو متى سيستيقظ منه؟

وما زاد الطين بلة ما قام به سرور بعد ذلك، عندما قام بسحب جسد ابنه آدم من أقدامه مسحولا على الأرض عبر باب البيت كشاة مذبوح يجر أشلاءها بعنف وبيده الأخرى كان يصفع وجهه مرات ومرات حتى نزف الدم من فم آدم فسال على وجهه وقميصه، فانتبه سرور للون الأحمر واضطربت مشاعره وأحس بجرم ما في تصرفاته وما وصل إليه من عنف تجاه ابنه حتى كاد أن يودى بحياته، وفى تلك اللحظة انتبهت بثينة هى الأخرى للدم.

فاندفعت نحو سرور تثنيه عن ضرب آدم.

وتقول: كف عن الضرب..

يكفيه هذا العقاب.

وأخذت ترجوه أن يتركه لحاله حتى يرحل بعيدا عنهم كى لا يـزج بـه في السجن بسببه .

و باستعطاف واضح قالت :

أنا وابنتك الضعيفة ليلى نحتاج وجودك إلى جوارنا ، دعه يترك البيت . يكفيه هذا الدرس المؤلم حتى لا تتكرر هفواته مرة أخرى ، لا شأن لنـا به بعد اليوم .

وبلغة بدت عليها الاستكانة وعلامات الأسى المرسـومة ببراعـة علـى الوجه .

قالت :

حافظ على صحتك يا سرور وتعال معى إلى داخل البيـت . . . تعـال ودعه يتولى أموره بنفسه ، لقـد أصـبح شـابًا ويسـتطيع أن ينفـق علـى نفسه ،

إن صحتك أهم وأولى من هذا العبث .

وشدته إلى داخل البيت بكل قوتها ، ولكن بعد أن قام سرور بركل آدم في بطنه بمقدمة حذائه خارج باب البيت ، ثـم رمـى بـه في الحـارة مثـل كومة من القمامة وأوصد باب البيـت في وجهـه كمـن يوصـد أبـواب الرحمة .

كانت الصفعات على وجه آدم مؤلمة وقاسية وكان تألمه كبير من أثر ركلة أبيه لبطنه ولكن هذا الألم كان أقل بكثير من قسوة والده عندما فوجئ به يفتح نافذة البيت مناديا عليه صارخا فيه :

يا حقير ، يا ليتنى ما أسميتك آدم على اسم والدى رحمة الله عليه ، أنت يا وغد تعال هنا . . . . هذه ملابسك أليس كذلك؟ ! فنظر نحوة آدم فوجده يحمل بيده كومة من الملابس الخاصة به ، فأومأ رأسة بالإيجاب قائلا بخنوع أجل يا والدى إنها ملابسى .

فرد عليه سرور ساخطا :

لا تأت إلى هنا مرة أخرى ولا أحب أن أراك يا خائنا لمن رعتك حتى صار لك شارب .

هل تظن أنك أصبحت رجلاً؟ !

فلنر كيف سترعى حالك بعد الآن؟ومن سينفق على طعامك وشرابك؟

أنت عار يجب قتله ولكن لن أفعلها حتى لا يزج بي في السجن من أجلك يا ملوث النفس .

*****

وبكل ما أوتى من جبروت ألقى بملابس آدم بالزقاق متناثرة هنا وهناك، ثم أوصد الشباك في وجهه بعنف مثل أبواب الرحمة التي أغلقت في قلبه فصار حجرا.

*****

حينئذ. . . . انكمش آدم داخل نفسه وأغمض عينيه متحاشيا نظرات المارة وارتعشت أواصر جسده وتسللت البرودة إليه وشعر بحنجر الخزى يشق صدره وهو يلملم ويجمع قطع ملابسه من كل جانب بالزقاق، ثم ركن بجسده تحت نافذة بيته منكمشا.

وبعد عدة ساعات من المكوث في الشارع أسفل النافذة الذي كان يترقب فتحها بين الحين والآخر منتظرا أباه يناديه لعله يحن قلبه ويرفق به ويدعوه للعودة إلى البيت، ولكن لا شيء حدث من أمنيات آدم، وشعرآدم بانسحاب روحه من جسده وكأنه فارق الحياة.

وبدأ يهذى بكلمات غير مفهومة، مخبولاً يكلم الجدران والطير والحيوان يصمت حين يناديه إنسان، يدعى حكمة لقمان بعض الأحيان، عينه تدوركعقارب الساعة يعزف بأنينه لحن الطير الشارد وبسكين الصمت يقطع أوتاراً، ودماءتنزف مثل حبات الزئبق وبعقله طبول أكل الذئب للحملان فأصابته غفوة وذهب في النوم لعدة دقائق شعر بعدها بصلادة أصابت قلبه وتمكنت منه قوة ما لا يعرف

مصدرها، وفجأه توقف نبض المشاعر فكف عن البكاء وتجمدت الدموع في عينيه.

وكيف يبكى والروح تبكى!!!

فأصعب بكاء هو بكاء الروح عندما تعجز عن الحياة رغم دبيب القلب بنبض الحياة.

وواصل آدم جمع ملابسه التي كان بعض منها مازال في الشارع، كان كمن يجمع سنوات عمره الماضية، وأخذ يضمها إلى صدره الذي كان مازال يخفق ولكن بالثأر من تلك الدنيا القاسية مثل عاهرة فض الشيطان بكارتها وامتهنت الغواية.

وأمسك آدم بجلباب صوفى غالى الثمن أبيض يزينه عند فتحة الصدر إطار من الكتان وكان قد احتفظ به في صندوق ملابسه مثل العديد من ملابس طفولته والتي أحتفظ بها لما تحمله من ذكرى في وجدانه.

ولهذا الجلباب ذكرى مختلفه عن باقى الملابس التي احتفظ بها

إنه الجلباب الأخير الذي قامت أمه بحياكته له، وذلك كان قبل رحيلها إلى العالم الآخر بشهرين.

ورجعت ذاكرة آدم إلى ذلك اليوم البعيد، عندما صممت أمه جميلة أن تضع لجلبابه ذلك الشريط الكتانى وإصرارها وإلحاحها على الخياط ألا ينسى كى يكون جلبابه أجمل من جلباب محمود ابن العمدة بقريتهم،

وكى لا يبدو مظهر آدم فقيراً، وتفتخر به وسط أسرتها عندما تذهب إليهم خلال أيام العيد.

تذكر آدم أبتسامتها في وجهه الصغير وهى تخبره أن هذا الجلباب مخصوص لصلاة العيد، ولكنها لم تنس ذاك السروال الجينز الذي وعدته بشرائه له عندما يتوفر لديها المال، ومدى حرصها على شرائه في يوم وقفة العيد.

ضم آدم الجلباب إلى صدره واحتضنه وكأنه يضم حنانها ويضم صدره لنبض صدرها، وجلس آدم مستندا إلى حائط بيته ممددا رجله في قارعة الطريق.

وذهب عقله بعيدا عن الدنيا بصخبها مناديا أمى. . أمى يا كل الحب في نفسى يا نفسى الضائعة بغيابك يا كل الحياة وكيف تكون الحياة؟بعد رحيل روحك عن روحى؟

وبكى آدم في صمت وهو يمسك بصورتها التي طالما احتفظ بها في حافظة نقود جيبه، وظل يبكى بكاء شديداً فارتفع صوته ووصل لحد النحيب، وبصوت تخشع وتخضع من أجله القلوب لجلال وهنه همس في الصورة أحبك يا أمي وأحتاج لك كثيرا لقد سئمت الكأس الذي أتجرع رشفاته من سقم الدنيا يوما تلو الآخر.

ومسح آدم بيده الدموع المنهمرة من عينيه كنهر فاض ماؤه أو بحر هـاج موجه لا يهم ولكن المهم في الأمر أن هذا الحاجز السـاكن في قلبـه منـذ وفاة والدته قد انهدم وأطاح بسجان عينيه بعيدا، والآن ها قد تحـررت نفسه المسجونة في الحزن لسـنوات عديـدة مضـت دون أن يبكـى فيهـا للحظة، وها هى دموعه تفور كالتنور.

كثيرا ما وعد والدته جميلة ألا يبكى، فالرجال لا يبكون، ولكـن الألم الذي حدث لآدم في تلك الليلة أشد بكـثير ممـا سـبق، فخـارت قـواه وابتسم ثم صرخ وضحك فاهتزكتفه فبدى مجنونًا يهذى أو مريضًا يأن بالوهن. . . . بالوجع أوربما يأن من الحياة بفراقها. . . وهمس لسـانه أشتاق إليك يا أمي، أشتاق إلى حلاوة ثغرك على كف يدى الصغير.

أشتاق لكلامك حين توبخينى في أذنى همسا. .

أنا أشتاق عمرى الذي مضى من دونك وعمرى الفرحان بوجـودك. ونظرآدم إلى السماء ومد يده إلى أعلى صارخا هل تسمعين شكوتى يـا حبيبتى الراحلة؟ أرهقتنى الأرض فهل لى مكان بالسماء.

هل شعرت بحزنى ونزف قلبى بالوحدة وأنا أودع جسـدك في سـكون تلك الليلة البعيدة؟ هل تشعرين بليلتى الحزينة تلك؟

وأنا أناديك أماه أماه يا كل البشر وكل الفرح والسمر سيبقى الوجع في مجرى دموعى ينادى الروح برجوعك، سيبقى الصبر يا أمي في آهـاتى

ويبقى الجرح فلم يتبق لى من حلاوة وجودك إلا ذكريات ومذاق حلاوة فطيرة السكر التي كنت تقومين بإعدادها .

تلك الفطيرة التي كان يشم الجيران رائحتها الفواحة حين تمتزج بنسيم الهواء عند الصباح وأنا عائد من صلاة العيد بصحبة أبى ، فكانت رائحتها تطرب لها نفسى من وأنا على ناصية الزقاق قادما ، فتشدنى إليك وأجدنى تاركا يد أبى من منتصف الطريق مسرعا ناحية البيت وأدق بيدى على الباب ثلاث دقات ، دقة الفرح لوجودك ودقة الدفء بعيونك ودقة قلبى وهو يرقص طربا حين تخطفين بثغرك من على جبهتى قبلة حانية بينما أكون مسرعا ناحية المطبخ أبحث عن فطائرك الحلوة .

لم يمهلك القدر المزيد من السنوات ، ولم يدركنى العقل حينها لأخبرك أنك جميلة مثل اسمك .

يا أمي الجميلة لاحظت في عينيك دفء الكون في ابتسامتك حين كنت تتأملين خطواتى الأولى بعامى الأول هذا الدفء كان واضحا ببعض الصور القديمة هذا الأرث البسيط الذي تركتيه لى وكنت تحتفظين به داخل علبة الحلوى التي أهداها لك والدى يوم زفافك ، أخبرنى هو بذلك .

وتساقطت الدموع من عين آدم وهو يلمس بأنامله خصلات من شعره وقبل صورة أمه يكلمها :

مازلت أتذكر يدك الحانية على رأسى وأنت تعوذيننى بالقرأن من حسد الجارات لى وإحاطتك لى بذراعك من عيونهم ها أنا الطفل الذي حملتيه في أحشائك صارصبيًا تحسدك عليه الجارات لذكائه وفطنته الملحوظة، كثيرا ما كنت أسمعك ترددين تلك الكلمات على أذن أبى فكنت أرى بعينيه الفخر لوجودى، كنت أراه هادئ القلب مطمئنا لأنه أنجب صبيًا سيكون له شأن عظيم كما كنت تخبريه دائما.

كنت أرى في عينيك الهادئة سحرًا لا أعرف سببه إلى الآن ولكن أعرف جيدا أنهما المرسى لموجات أبى الغاضبة.

أه يا أمي هذا أبى يركلنى ويطردنى من الجدران التي حملت دفء أنفاسك يوما ما.

مازلت أتذكر صباح ذاك اليوم البعيد أنه آخر عيد لك بجوارنا قبل رحيلك، في هذا اليوم كنت مشغولا بالبحث عن الفطيرة على أرفف المطبخ وداخل الموقد الصغير، سمعت ضحكات أبى معك عند باب البيت وحواركما الباسم، مازالت بعض كلماته عالقة في ذهنى وأتذكره وهو ينادى فرحا تعالى يا أدم. . . يا آدم انتظر يا ولد لن تأكل الفطيرة وحدك مثل كل عيد أترك لى نصفها وإلا لن أعطيك العيدية!!

ولكن كلام الآباء قد يكون مخالفا كثيرا لمشاعرهم الحانية، تلك المشاعر الرقيقة التي دائما يحاولون إخفاءها عن أولادهم حرصا منهم على أن

يبدو مظهرهم صلبًا وشخصياتهم قوية، فكنت لا أخاف من حدة عينيه، ففيض قسوتهما تتبعه الرحمة.

فدائما ما يضع الآباء أقنعة قاسية، ودائما يفضلون أن تكون صورتهم قاسية بديلا عن أن تنكشف حقيقة أمرهم الهشة أمام أرواحهم الصغيرة المتحركة على الأرض والمتعلقة يدمائهم وجيناتهم كى لا تنكشف مشاعرهم الصادقة وتبدو ذاتهم أمام فلذة أكبادهم ضعيفة.

عجبا لك يا أبى لقد كانت سعادتك المرسومة على وجهك لا تكتمل إلا وأنت ترانى ألتهم الفطيرة كلها وحدى، وبيدك الحانية تطعمنى رقائق الفطيرة الخفيفة الهشة في فمى.

صمت آدم قليلا بلا حدود..

ووجد حال لسانه يسألة ما اللعنة التي أصابت مشاعر أبى بعد رحيلك يا أمى؟!

أنا لم أسمع صوته الحنون يناديني ولو مرة منذ غيابك يا أمي، ولم تعد عينه تلاقى عينيّ وكأنه يهرب منها أو منك ومن وجودى في الحياة

وهاجمت ثورة الذكريات قلب آدم فبكى وضم ركبتيه إلى صدره وبجواره كومة من ملابسه الرثة والمهلهلة لا يدرى إلى أين يذهب؟ وماذا سيفعل في جنح ظلام الليل الدامس، وخاصة أن جيوبه خاوية وليس بحوزته أى نقود، فعاود مسح دموعه ولبس قناع الثلج، هذا

القناع البارد من اللامبالاة المرسومة على وجهه دائما، وهـدأت نفسـه قليلا وبحث عن بعض السكون في ذكرى حلوة، سكون مغلف بالرحمة مثل شربة ماء تبلل عروقه الجافة أو قطعة حلوى يشتهيها بعد صيام.

وفكر في ما سوف يفعله بعد ذلك.

ولكن للأسف لم يهتد فكره لشيئ.

فلم تعرف قدماه مأوى لجسده غـير بيـت أبيـه، ولم يهتـد عقلـه لأى مأوى غير الشارع، وخاصة أن أخواله وجدته لأمه يعيشون في إحـدى قرى الدلتا البعيدة ولا أحد منهم يسكن معهم بالإسكندرية.

ومرت ساعات من الليل طويلة وقاسية.

قضاها آدم بين الوقوف تارة على ناصية الزقاق بعيدا عن القطط بموائها والكلاب بنباحها وخاصة أنها بدأت تهيم حوله كفريسة ضالة، وبـين الجلوس بجوار باب البيت لا حيلة له ولا قوة تارة أخرى.

ولكنه عندما شعر بالتعب من الوقوف على قدميـه، وعنـدما خـارت قوته وضعفت على الاستمرار كآدمى اضطر إلى الجلوس بجوار بعـض القطط التي كانت تتجول حوله هنا وهناك بحثا عـن طعامهـا في أكـوام القمامة، فأخذ يلهو معها ويداعبها ليكسر الخوف الذي انتاب قلبـه في سكون الليل وخلو الحارة من وجود المارة ورهبة الوحدة إلا من بعض الأنس الموجود بتلألئ النجوم في صفحة السماء المظلمة.

ولعله يجد في جواره للقطط الدفء الذي افتقده .

وأخذ آدم يلعب معها كطفل ضلت خطاه الطريق إلى البيت بعد أن فقد أمه في الزحام ، وغلبه النعاس ، فصنع من كومة ملابسة وسادة وضع رأسه عليها لحين مجيء شمس الصباح ، متمنيا أن تمسح بأشعتها الذهبية ظلام ليلته الحالك .

ومتمنيا في نفسه أن يرفق أبوه سرور بحاله ويسامحه على ما ارتكبه من جرم فادح تجاه بثينة زوجة أبيه .

وبعد منتصف الليل بعدة ساعات ومع دقات الساعة الثالثة انتفض آدم من غفلته على صوت إطارات السيارة الأجرة التي اعتادت ثريا أن تستقلها عند ذهابها وإيابها من حفلات الزفاف التي تغنى فيها .

وعندما همت ثريا بالخروج من السيارة سمع آدم حواراً دار بينها وبين كرم السائق . .

أخبرها فيه

أنه سيتأخر بعض الوقت عن موعده في الغد .

فصمتت ثريا برهة وارتسمت على وجهها علامات الدهشة الممزوجة بالضيق وسألته بضجر :

ما السبب يا كرم؟

فأجابها قائلا إن موعده مع الطبيب الخاص بعلاج والدته غدا ولا يمكنه تأجيل هذا الميعاد في وقت لاحق .

استمعت ثريا إلى كلام كرم والغيظ يسيطر عليها ، ثم صاحت فيه منزعجة : أتخبرنى بهذا الأمر الآن؟

هل نسيت موعد الغد في الثامنة مساءً بالضبط؟!!

أنه حفل زفاف بنت الحاج صالح ، وهذا رجل ثرى وله سطوته بين سكان الحى ، ولو تأخرنا عليه سيحدث لنا ما لا يحمد عقباه ، ناهيك عن من يحملك من رجلك ويلقى بك في البحر يا كرم .

ولكن كرم لم يرد عليها ولو بكلمة واحدة وظل صامتا .

فمطت ثريا شفتيها للأمام وقالت :

بالله عليلك ماذا أفعل الآن؟إنها ليست المرة الأولى!!!

فزاد صمت كرم ولم يعر غضبها أى اهتمام .

فقالت له بنبرة حادة : اذهب إلى بيتك يا كرم ولا أحب أن أرى وجهك مرة أخرى ، وأرجوك لا تعود هنا مرة ثانية .

وبعين ثعلب ماكر يعلم سذاجة فريسته ، نظر كرم فيها مبتسما وقال :

قلبك أبيض يا فنانة . .

يا ست ثريا أنا أعلم جيدا أنك لن تبيعى العيش والملح، وسأحاول أن أحضر في الميعاد بالضبط، أعدك بذلك.

همهمت ثريا بشتائم كثيرة غير واضحة، فهى رغم طول لسانها وبذاءته لديها قلب يتسع بحب كل الناس ويسامح أخطاءهم.

ابتسم كرم عندما رأى ثريا توبخه.

وبعين موارية اختلس النظر إلى ملامحها الغاضبة ثم قال بصوت يبدو عليه الخنوع والاستكانة : وأنا مسامح توبيخك لى يا سيدتى، ولك كل الحق في ذلك، ولن أنسى أفضالك على وعلى أسرتى ووالدتى يا سيدة الكل.

فضحكت ثريا التي كانت تنصاع بسرعة لكلام المديح والغزل ،

وقالت : سأنتظرك غدا يا كرم في الميعاد بالضبط وحاول ألا تتأخر . .

أرجوك يا كرم.

ـ أمرك ست ثريا.

وبعد نهاية حديثهما انطلق كرم فورا بسيارته الأجرة محدثا ضجيجًا أيقظ النائمين نتيجة احتكاك إطارات السيارة بأسفلت الشارع الرئيسى.

وبخطوات متثاقلة جرت ثريا ذيل فستانها وهمومها وهى تحمل على أحد كتفيها تعب وعناء ليلة طويلة من الغناء المستمر بلا انقطاع .

وعلى الجانب الآخر من الكتف تحمل حقيبة جلدية كبيرة تحتوى على كل ما لذ وطاب من لحوم ومشويات وعصائر وحلويات أعطتها إياها زوجة صاحب أكبر مطعم للمشويات بمنطقة بحرى، بمناسبة زواج ابنها وإحياء ثريا ليلة الزفاف بالغناء وإضفاء جو من السعادة والبهجة على المدعوين من الأحباب والأقارب .

ورسمت ثريا على وجهها ابتسامة يومية مقنعة لعذاب نفس تكره رمق شهوة الرجال بجسدها وتعشق عذابهم بعدم نيلهم منها .

وما إن اقتربت ثريا من باب بيتها تعثرت قدماها بجسد آدم فصاحت

مندهشة تتساءل : من . . . من؟ ثم دققت النظر في وجهه فوجدته آدم .

اقتربت منه وبصوت خافت سألته : لماذا تنام في الشارع يا آدم؟

و بوجه جامد اختفت من ملامحه المشاعر والحس رد عليها قائلا : ماذا تتوقعين يا ست ثريا؟هل رغبة منى أن أنام هنا مثلا!

بالطبع لا ولكن بكل بساطة أبى طردنى من البيت وأغلق الباب بوجهى وألقى بملابسى في الشارع

انفعلت ثريا بكلام آدم واهتزت مشاعر الأمومة داخل قلبها وسقطت من عينيها دمعة حائرة بين مشاعرها كأم وإحساسها بيتمه وبين سخطها عليه بسبب جرأته في الرسم وعدم أحترامه للآخرين .

وانتصرت مشاعر الأمومة في آخر الأمر ومدت ثريا يدها إليه تشده من ذراعه نحو بيتها وهى تطمئن قلبه وتخبره أنه سينام مع ابنها يوسف وفى حجرته .

تردد آدم هل يوافق على عرض ثريا ويذهب إلى بيتها أم يرفض وينام بالشارع ، فتلعثم وعجز عن الرد فجذبته ثريا سريعا من قميصه فوقف آدم هزيلاً وضعيفًا فألقى بجسده على الحائط كى لا يسقط على الأرض من شدة التعب ، وعندما وجدته ثريا على هذا الحال من الضعف فما كان منها إلا أن ألقت بحقيبتها على الأرض وأخذت تجمع حاجياته .

فدب الأمن بقلب آدم وعادت الروح إلى جسده الواهن واقترب منها مقبلا يدها امتنانا لرحمتها به وسماحها له بالمبيت عندها والنوم في بيت محاط بالجدران بدلا من النوم في العراء .

وبمجرد أن دخل آدم بيت ثريا لفتت أنتباهه صورها المعلقة على الحوائط في كل مكان وعبثية بيتها الذي يعم بالضجيج ، فلا شيئ موجود بمكانه أكواب فارغة بها آثار لحبات اليانسون على منضدة مستطيلة متربة سطحها زجاجي مكسور طرفه .

إضافة إلى أكوام من الملابس الملقاة على كراسى من الأرابيسك المعشق بالتراب وأعواد من الثقاب والسجائر منتشرة على سجادة حمراء بدت الفراغات بين خيوط نسيجها بعد أن تحللت وفقدت تماسكها .

فجلس آدم على مقعد جانبى يتحسس بأنامله أوتار عود خشبى بدا عليه القدم بينما دخلت ثريا المطبخ لتفرغ حقيبتها من المأكولات وبنفس اللحظة أخذت تنادى بصوت عال على ابنتها شمس لتستيقظ من النوم وتتناول العشاء ، وكى توقظ يوسف من نومه .

وبعد عدة محاولات من النداء المتواصل والمتكرر انتبهت شمس أخيراً لصوت ثريا وهى تنادى ففركت عينيها وقامت من نومها وخرجت من حجرتها تتخبط بالباب والجدران ، فالنوم مازال مسيطرا عليها ، وأثناء طريقها ناحية المطبخ لمحت وجود شخص ما في الردهة الواسعة ، فدققت النظر في وجه هذا الضيف وذهبت ناحيته وقالت بصوت خافت متعجبة آدم !

ولكن آدم لن ينتبه لوجود شمس أمامه ، حيث غرق في سبات عميق بمجرد أن أرتاح جسده على المقعد .

امتعضت شمس وتضاربت الأسئلة برأسها عن سبب وجود آدم في البيت وبهذا الوقت المتأخر ، ولكن بمجيء ثريا ناحيتها تحمل بيدها صحيفة تحتوى على ألذ وأشهى الأطعمة المرصوصة توقفت الأسئلة

على لسان شمس وأسرعت ناحية أمها تعاونها، فأخذت منها الأطباق وبدأت تعيد ترتيبها أعلى المنضدة.

وبعدها عاودتها الحيرة مرة أخرى وبدت واضحة على قسمات وجهها فلاحظت ثريا هذا الارتباك بوجه ابنتها فابتسمت وقالت ببلاهة جاهلة، تدعى الحنكة والذكاء :

أتودين أن تعرفى السبب؟ أليس كذلك؟

وسريعا أجابتها شمس : بالتأكيد أريد أن أعرف!

فافتربت ثريا من أذن ابنتها وبصوت خافت قالت : لا تندهشى كثيرا يا شمس!! سيقضى آدم عندنا عدة ليال حتى يتحسن الأمر مع والده بعد أن طرده، لذا عليك أن تعتبريه أخًا لك لحين أن يدبر حاله ويعود لبيته، فليس من المعقول أن نتركه ينام في الشارع، هل لديك رأى آخر؟!وقبل أن تجاوبها شمس كانت قد شدتها من يدها مسرعة بها ناحية المطبخ وقالت لها : أنت تعرفى جيدا أن أسرة والدته جميلة من قرية صغيرة بالدلتا، ولا يوجد له أقارب تسكن بالإسكندرية كى يلجأ إليهم في تلك المحنة هل فهمت يا شمس حال آدم الآن..؟أومأت شمس رأسها بالإيجاب وقالت : أجل فهمت ولكن وجوده سيسب لى بعض الحرج.

فضحكت ثريا ساخرة وهى تقول : حرج؟ حرج ماذا يا ابنة العالمة ثريا ستظلين مجنونة وخجولة طيلة عمرك؟ إن آدم تربية يدى وأعلم جيدا مدى حسن خلقه . . . دعك من كلام زوجة أبيه هذا الولد سيكون عونا لنا في المستقبل .

غضبت شمس من كلام أمها وقالت : لا أفهمك يا أمي ، ولكن افعلى ما يحلو لك ، لا شأن لى بك .

مطت ثريا شفتيها وقالت لها بغضب : غبية . . غبية .

ثم تحركت ثريا متجهه إلى الردهة مرة أخرى ، وأخذت توقظ آدم من غفلته برفق فانتفض كالعصفور ، جميع أواصر جسده ترتعش من شدة البرد .

وبابتسامة خفيفة ارتسمت على وجه ثريا المنحوت بإبداع الخالق إلا من بعض التجاعيد الخفيفة على جانبى العين والجبهة .

أخذت تتأمل ضعف آدم وتألمت شديدا لحالته السيئة ولكن كعادتها حاولت أن تسيطر على مشاعرها ، فحدقت النظر بعين آدم وقالت له بصرامة :

بالرغم من سوء تصرفاتك وغضبى من أفعالك غيرالمبررة أو غيرالمفهومة فإن قلبى موجوع من أجلك وحاولت أن أقاوم خوفى عليك ولكن قلبى رفض السماح لى بتركك تنام بالشارع .

ثم رتبت على كتفه بحنو وقالت : أنت مثل ابنى ولن أسامح نفسى لو تركتك على هذا الحال المزري الذي رأيتك فيه ! !

ومن الآن فصاعدا لك أن تعتبر شمس كأختك ليلى .

بدت الدموع بعين آدم غزيرة ولكنه كعادته رسم القوة على وجهه ولم يسمح بسقوط دمعة واحدة على خده وابتسم دون كلام .

فتألمت شمس أيضا لحاله ورحبت به مبتسمة هى الأخرى ، فهى طالما حلمت بوجود أخ يكبرها تعتمد عليه وتطمئن بوجوده ، خاصة بعد وفاة أبيها منذ زمن بعيد ، مما جعل ثريا تلجأ إلى الغناء في الأفراح ، تلك المهنة التي طالما خجلت منها شمس وذلك بسبب نظرة بعض الناس وانطباعهم المتكون بمخيلتهم عن ثريا ورؤيتهم لها كعاهرة تعمل بالليل . . . ولكن بماذا يفيد الخجل إذا جاعت البطون؟

إن الفقر لن يسأل أحداً من أين أتيت بالمال؟ عندما يقرص الجوع البطون رغما عنها .

ولكن كل ما يشغله هو سد رمق تلك الأفواه التي تصرخ طلبا للطعام .

ثريا سيدة في منتصف الثلاثينات لا تملك أى شهادة تعليمية ، فتزوجت في الصغر من رجل يكبرها بأعوام كثيرة كان قد أوهمها بالثراء والعيشة الرغدة ، ولكن القدر لم يمهله أن يوفر لها حياة مرفهة

كما كانت تحلم، بل ترك لها مسؤولية صبية في سن الشباب وطفل في الثامنة ولا تملك من الدنيا إلا هذا الصوت الجميل، فوجدت نفسها تغنى بالليالى الشعبية والأفراح حتى تستطيع العيش والإنفاق على شمس ويوسف، وصار هذا الصوت الوسيلة الوحيدة والمتاحة لها بسهولة لكى تكسب قوت يومها، بعد أن تراكمت عليها الديون بعد وفاة زوجها.

ورغم عروض الزواج التي جاءتها من عدد كبير من العازفين الذين يشاركونها العمل بالأفراح ليلا، فما كان منها إلا أن رفضتها كلها وبشدة لما عانته من ضرب وشتائم وإهانة يومية من زوج سكير ينفق قوت يومه من عمله طبال بالأفراح على أصدقائه من مرتادى الحانات وشاربى الكحوليات، كانت ثريا تبحث عن الزوج الغنى الذي يشملها بالرعاية والحماية والإنفاق ويعوضها عن سنوات من العذاب قضتها بين السهر و البكاء وبين الجوع من الفقر والتعب ولكن في أغلب الأحوال كان كل من يرغب فيها يريدها بطريقة غير شرعية كغانية، وهو ما كانت ترفضه بشدة، فبالرغم من تبرجها وتباسطها في معاملتها مع الآخرين إلا أنها ترى أن جسدها لا يمكن أن يلمسه ويكشف عوراته سوى الرجل الذي سيكون لها زوجًا شرعيًا.

وجلست شمس على منضدة الطعام بجوار والدتها، بينما كانت أيدى آدم تتصارع مع بعضهما البعض في تناول الطعام، فلم يرفع عينه عن

المأدبة إلا بعد أن التهم المأدبة كاملة وقضى على كل الطعام، بمفرده دون مراعاة لوجود ثريا أو شمس معه على نفس المأدبة، لقد كاد العطش أن يهلكه والجوع يفتك بمعدته.

فكانت تنظر شمس إليه وهو يأكل بنهم متعجبة من أمره وتضحك في سرها من غرابة أطواره بينما لم تنشغل ثريا به، بل كان ما يشغلها هو كرم السائق ونذالته معها كالمعتاد وتأخره الدائم على مواعيد العمل. ولكنها بعد برهة من الوقت تنبهت إلى انتهاء الجميع من تناول الطعام ونوم يوسف على الأريكة وبيده قطعة من الخبز، فحملته إلى حجرته ونادت على آدم كي يتبعها إلى حجرة النوم، وبعد أن وضعت يوسف بالفراش نظرت إلى آدم الذي كان يقف بجانب باب الحجرة مترددا في الدخول وجسده المنكمش داخل حاله وتلك الإنكسارة التي لمحتها بعينيه وهو ينظر إلى الأرض فنادته وطلبت منه أن يرقد في هدوء إلى جوار يوسف، ووعدته أنها سوف تذهب إلى بيته في اليوم التالى وتحاول أن تجد حلاً لتلك المشكلة مع أبيه وزوجة أبيه.

لم يهتم آدم بوعد ثريا له، فكل ما كان يشغل باله في تلك اللحظة هو أن يلقى بجسده المنهك على الفراش بعد عناء يوم طويل وشاق على النفس والجسد.

وبالفعل عند مجيء اليوم التالى وبوقت أذان العصر اتجهت ثريا إلى بيت آدم وهى ترتدى عباءتها السوداء وتلف جزءاً من رأسها بإيشارب

حريرى ينزلق دوما من على شعرها وبصحبتها شمس، تلك الفتاة المدللة والتي تبدو من جسدها النحيل وشعرها الكستنائى وأناقتها الشديدة كعارضة أزياء فرنسية.

وعندما فتحت بثينة الباب فوجئت بها فاستقبلتها بترحاب مفتعل، بينما يساور قلبها بعض من القلق بسبب تلك الزيارة غير المتوقعة وأثناء تناول ثريا كوبًا من الشاى الساخن اعتدلت في جلستها ثم أخبرتها أن آدم مقيم عندها في المنزل.

فتجهم وجه بثينة. . فلم تبال ثريا بهذا التجهم بل أخذت تضغط على مشاعر بثينة لعل قلبها يحن لهذا المسكين يتيم الأم، وتقنعها أن تسامحه وأن الأفضل العودة لبيته.

فجحظت عين بثينة وصاحت فيها ماذا تقولين؟ لن يعود هذا الحقير إلى هذا البيت مطلقا.

فهبت شمس من جلستها عندما لاحظت نفور بثينة منهما ومن تلك الزيارة، وأسرعت نحو الباب لتلحق بها ثريا وهى عاجزة عن الكلام أمام إصرار بثينة على طرد آدم.

وبمجيء سرور من العمل وجد ثريا تنتظره عند باب بيتها، فنادت عليه وأسرعت نحوه تحاول مجددا أن تقنعه بعوده ابنه إلى حضنه، ولكن دون جدوى، وصدمتها عبارة جاءت على لسانه المشتعل بالغضب بأنه

تبرأ من وجوده وغير مسؤول بعد اليوم عن هذا الولد الأحمق، ثم تركها وانصرف إلى بيته والغضب يكسو وجهه، ولكن هذا الغضب تحول إلى هدوء بمجرد أن بدأت بثينة تهدئ من غضبة بكلمات معسولة من زوجة أب ماكرة انتهزت الفرصة لتطيح بابن غريمتها ولو ماتت، بينما كانت اللعنات والشتائم تنهال من لسان سرور بسبب هذا الملعون آدم، الذي كان السبب في جعل تلك الغزية تدنس بيته الشريف بأقدامها العاهرة.

وعادت ثريا إلى بيتها مترددة ماذا تفعل؟

هل تطرده هى الأخرى؟

. . فمن غير المعقول أن تطرد هبعد أن دبت السكينة بقلبه المهترئ خوفا وفزعا وبعد أن دخلت الطمأنينة إلى قلبه.

وأخذت ثريا تفكر كيف تطرده من البيت دون أن تصيبه بالحزن وتجرح كرامته، ولكنها لم تصل إلى حل للمشكلة فبدأت تلوم نفسها لعدم تقديرها للموقف وسرعة استجابتها لمشاعرها الحانية التي دوما تسقطها في الذلات وتجعلها ترتكب الكثير من الحماقات دون دراسة للمواقف وعواقب بسبب تهور تصرفاتها!!

فكيف ستنفق عليه وهى بالكاد تكسب ما يكفى طلباتها ومصاريف أولادها شمس ويوسف.

ومر الوقت سريعا وجاءت الثامنة وجلست ثريا تنتظر مجيء كرم السائق وتفكر كيف ستترك شمس مع آدم وحدهما في البيت .

وتأخر كرم عن موعده، وعلى صوت رنين من الهاتف المحمول، جاءت رسالة منه يخبرها بأنه لا يستطيع المجيء .

فأشتعلت ثريا بالغضب وانطلقت الشتائم على لسانها كموجات البحر الهائج تلعن وتسب هذا السائق الحقير الذي يقاسمها قوتها بالعمل سائقًا على التاكسى الذي كان ملك لأبيها مقابل الذهاب معها إلى الأفراح والعودة منها، ووجوده إلى جوارها كحارس لها من بعض النفوس المريضة التي تتطاول عليها لفظيا وجسديا ويعتبرونها لحمًا رخيصًا ومستباحًا .

جلس آدم أمام غضب ثريا مكتوف الأيدى لا يعرف كيف يساعدها؟!

فطلب منها الهدوء كى تستطيع التفكير في الأمر بترو والوصول إلى حل سريع .

وبعد أن هدأت ثورة ثريا العارمة لعدة لحظات أخذت نفسا عميقا وأخرجت زفيرها وقالت : ما رأيك يا آدم أن ترافقنى في العمل بدلا من كرم؟

فتهلل وجه آدم وضحكت عيناه واستجاب سريعا لطلبها، وقام بتغيير ملابسه الرثة بأخرى نظيفة ومهندمة تناسب الحفل، وحمل بيده أوراقه وأقلامه فلعل قلمه يجد ما يدفعه للرسم.

وبسرعة فائقة نزل الشارع وذهب إلى المكان الموجود فيه التاكسى وكان عند ناصية الشارع وأخذ يلمع الزجاج ويمسح المقاعد منتظرا ثريا حتى تنتهى من إعداد نفسها، ووضع مساحيق تجميلها وتنسيق شعرها وارتداء ثوبها.

وبالفعل وصلت ثريا إلى حفل الزفاف في الموعد المحدد، وحين دخلت على المدعوين بثوب أزرق لامع وقصير بهرت الجميع بتلألئ جسدها تحت الإضاءة ثم بدأت بالغناء وهى تتمايل وترقص يمينا ويسارا كى تضيف البهجة والسعادة على الجميع فتطلق الضحكات وترقص مع العروسه وتدعو الله أن يرزق كل الشباب بأجمل الفتيات وتنادى على الأمهات وتداعب الأطفال وتلقى على المدعوين القبلات، فغنت كما لو كانت مطربة محترفة في حفل غنائي وليس فرحًا شعبيًا.

وجلس آدم مبهورا بها إلى جوار الفرقة الموسيقية يرسم بقلمه ثريا وهى تغنى وحال جسدها واندماجه مع الموسيقى وتمايله مثل شجرة تهتز أغصانها مع رياح الخريف، فالبرغم من تلك الخطوط من التجاعيد الواضحة على ملامح وجهها وتضاريس جسدها إلا إن حركة جسدها كانت مثل شابة بالعشرين، كانت التفاصيل باللوحة كثيرة واحتوت

على ثريا والعروسين، حتى المدعوين كان لهم نصيب في اللوحة ومرت ساعات الحفل سريعة ولكن نسجت فيها الوجوه الكثيرة التي تأملها آدم بدقة عالمًا جديدًا من المشاعر والأحاسيس الذي طالما كان يبحث عنه داخل لوحاته، فهذا وجه لأم فرحة بزفاف ابنتها. . . وذاك وجه لصديقة تشعلها نار الغيرة!!

ووجه آخر لأم العريس وعلامات الخوف تملأ وجهها، وهذا الصراع الذي بدا عليها وكأن قطعة من جسدها تنزع رغما عنها.

ظل آدم يرسم بقلمه الرصاص متأملا شاردا سابحا في العيون وحركة الأجساد ولم ينتبه لصوت الموسيقى الصاخب أو بكاء أم العريس وهى تقبل ابنها قرب انتهاء حفل الزفاف، لم ينتبه لصوت والد العروسه وهو يتقبل التهانى ويردها بحفاوة بل كانت الدموع الحبيسة بعين الأب هى بطل الحدث، خاصة عندما ذرفت عيناه دمعة فرح خلسة وهو يقبل ابنته في جبهتها أثناء وداع صغيرته وضمها إلى صدره بحنان وفى نفس اللحظة كانت يد والدة العريس تتشبث بابنها كطفلة ستفقد لعبتها المفضلة والتي انشغلت بها عن الدنيا لعدة سنوات، ظل آدم يدقق النظر في ملامح الأم وحمرة عينيها وأنفها المنفوخ من شدة البكاء، وتساءل لماذا هذا الصراع النفسى، لماذا نبكى عند زواج الأبناء رغم أن الأم هى التي تسعى على قدم وساق لكى تفرح بزواج أبنائها.

وشرد آدم بعيدا وتذكر والدته، تلك الجميلة في أول يوم دراسى له وهى تمشط شعره وتمسح بكف يدها الحانية على رأسه.

تذكر تلك الضمة وهذا الحضن الدافىء وهى تقول له بابتسامة حزينة: أخبرتنى العرافة أنى لن أعيش وأحضر زفافك، ولكن هذا الحضن لن تنساه يا آدم حتى لو صدقت العرافة... أجل يا آدم لن تنسى أمك، عدنى يا صغيرى أن أكون بمخيتلك دائما.

و هز أدم رأسه وهو يرسم بقلمه واختلط عليه الواقع بالخيال ورد بإيجاب أجل يا أمي لن أنساك ولن أنسى شغفك برعايتى، وفجأة استرعى أنتباهه فتاة صارخة الجمال ترتدى ثوبًا أحمرناريًا وهى تدوس بكعب حذائها العالى والمرصع على ذيل فستان العروس الأبيض حتى كادت العروس أن تترنح نحو الخلف وتسقط على الأرض لولا سرعة العريس ولهفته على إنقاذها من هذا الحرج التي كادت أن تتعرض له، فأمسك بخصرها كجوهرة من الماس كادت أن تنزلق من يده واندهش آدم من شغف عين العريس بعروسه فلا يرى بعينيه غيرها فلا وجود لصاحبة الثوب الأحمر أو الأصفر أو... أو.. كان لصوت طلقات الرصاص المندفع من مسدس الصوت الخاص بصديق العريس كنوع من الاحتفال أثر كبير، فزاد شغف آدم بتصوير كل تلك اللحظات في لوحة تبدو مثل الملحمة، حتى صار اندماج آدم في رسم اللوحة

بتفاصيلها أكبر بكثير من الانتباه لصوت ثريا وهى تربت على كتفه وتناديه : يا آدم آدم هيا . . . يا آدم لقد انتهى حفل الزفاف .

وتعالى صوت ثريا وهى تنادى آدم : أنا منهكة دعنا نرجع إلى البيت بسرعة فاليوم كان طويلا وتأخرت كثيرا على الأولاد . . أ لا تسمعنى ! ! !

تأمل آدم وجه ثريا وكأنه يراها لأول مرة، وظل صامتا للحظات قليلة شاردا حتى عاد إليه انتباهه فأجابها بهدوء :

أجل . . . أجل . . . سنعود للبيت حالا .

ثم لملم أقلامه ولوحته سريعا وهب واقفا يساعد ثريا ويحمل عنها حقيبتها، وأسرع خارجا من قاعة الفرح متجها إلى التاكسى لكى يقوده ويرجع بثريا إلى بيتها في صبيحة اليوم التالى .

وبمجرد دخول آدم إلى البيت انسحب سريعا عنهم ثم ذهب إلى حجرة يوسف مرتميا على الفراش وذهب في سبات عميق دون أن يبدل ملابسه .

هرولت شمس إلى والدتها وسألتها ما حال آدم اليوم، أراه حزينا أو ربما خجولا ! ! أجابتها ثريا ليس خجولا بل متعبًا دعيه وشأنه الآن أنا أشعر أنه غريب الأطوار وهيا ساعدينى في إعداد المائدة لنأكل سويا .

فأجابتها شمس : عندك حق يا أمي، هو لم يتكلم منذ الصباح بكلمة، ربما صدمة ما حدث له بالأمس أمام الجيران، إنها صدمة كبيرة جعلت لسانه يصاب بالخرس، وهنا دخل يوسف عليهما باكيا.

فأخذته ثريا في حضنها عندما أخبرها باشتياقة لرؤية والده الذي لم يره منذ سنوات، وأن غيابها طول الليل في الأفراح ونومها معظم النهار نتيجة تعبها جعله يشعر بالحزن الشديد.

قال يوسف وهو يمسح بيده الدموع المتساقطة من عينيه : أنا أحتاجك بجوارى يا أمي وأحتاج رعايتك وحنانك.

نزلت ثريا بركبتيها على الأرض وضمت يوسف بشدة فتساقطت دموعها رغما عنها ثم أخذت تقبل يد صغيرها.

وفجأة ظهر أماهم آدم صامتا متأملا لحظات كانت لها ذكرى مماثلة مع والدته وهو يطلب منها ألا تتركه بالبيت وحيدا عندما تذهب بالحلوى والمخبوزات التي تصنعها إلى بيوت الأثرياء، واتجه آدم ببطء ناحية يوسف وقال بصوت هادئ هل تقبل وجودى كأخ لك من تلك اللحظة؟ فلن تكون وحيدا وسأرافقك في كل مكان وسأتنزه معك. ابتسم يوسف وأمسك بيد آدم فرحا ثم أخذ آدم كوبا من الماء وارتشفه مرة واحدة، فسألته ثريا إن كان سيتناول معهم الطعام، فأجابها وهو يجر قدميه نحو غرفة النوم لا . . لا . . كنت أريد الماء فقط.

وأخذت ثريا تفكر بأمر ابنها وحاجته لرؤية والده وبحال آدم هذا الشخص الغريب الذي فرض وجوده وأعتقد أنه سيكون فردا من أفراد الأسرة في البيت بالرغم من معرفته بضيق حالها واحتياجها للمال .

وشردت ثريا في آدم أثناء تناولها الطعام مع أولادها ، والوسيلة التي يعود بها إلى بيته ، ومرت ساعات الليل ثقيلة لم تنم ثريا ولم يغمض لها جفن خشية على ابنتها عندما بدأ الشيطان ينزغها بأفكار سوداء ترى فيها آدم يرسم شمس عارية الجسد ، وظل الشيطان يوسوس في عقلها بكل الموبقات المتوقعة وغير المتوقعة من آدم مستندة على مقعدها وتراقب اللحظة التي سينفتح فيها باب الغرفة التي ينام بها آدم حتى غلبها النعاس مكانها .

وفى اليوم التالى قررت أن تذهب مرة أخرة إلى سرور وتحاول معه وتستعطف قلبه لكى يعود آدم إلى حضنه ، وبعد الظهر بقليل كانت تدق الباب على بثينة .

وعلى الأريكة جلست ثريا بجوار بثينة تحاول أن تثنيها عن فكرة طرد آدم من بيته إلى الأبد فقالت :

متى سيعود آدم إلى البيت؟لقد نال ما يستحقه من عقاب ! ! إلى متى سيكون مطرودا؟ ! !

ردت ثريا وقد بدا عليها الانفعال : ماذا تقولين؟ لقد أنقذنى الله من وجود هذا المجنون بالبيت، غير مصاريفه الطائلة التي لا حدود لها.

وفجأة وعلى غير المتوقع ارتفعت نبرة صوتها وبحدة قالت : لن أسمح بعودته، لقد علمت إنه يسكن معكم بالبيت أليس كذلك؟!

أجابتها على الفور : أجل.. ولم أنم البارحة، كانت ليلة الأمس ليلة عصيبة، فخوفي على ابنتى شمس منه أصابني بالهوس، وظللت الليل بأكمله أراقب أبواب حجرات النوم وأنا على الأريكة، ثم تنهدت قليلا وقالت:

لا أعلم كيف أتيت به إلى البيت رغم علمى بجنونه، ولكن عندما وجدته أمامى وهو جالس في الزقاق مع الكلاب والقطط أصابنى بالجزع، مما جعل قلبى ينفطر من أجله ووجدت دموعى تسيل رغما عنى عندما رأيته يبكى ويتذكر والدته!!

ردت بثينة بتعجب واستنكار : قلبك الرهيف هو المسؤول وهو ما أوقعك في هذه المشكلة، فلتتحملى إذن، لكن بالنسبة لى ـ وهنا نظرت بثينة في عين ثريا ـ وقالت بحدة : كما أخبرتك منذ قليل لا أمل في عودة آدم ليعيش معنا، فليتكفل بنفسه، يكفينا هذا القدر من الشقاء لأجله.

وصمتت بثينة عن الكلام وأنهته بتجاهل متعمد لوجود ثريا وطال الصمت بينهما فوجدت ثريا أنه من الأفضل لها أن ترجع إلى بيتها، فلا فائدة من وجودها أكثر من ذلك في بيت بثينة ولا جدوى من النقاش معها.

ودخلت ثريا بيتها فوجدت آدم في المطبخ يعد بعضًا من شطائر الجبنة فاندهشت وتعجبت للوهلة الأولى، ولكنها بعد دقائق من تأملها مهارة آدم في صنع الشطائر تذكرت أن والدته كنت تعد تلك الشطائر بمهارة فائقة، وكانت تقوم ببيعها وبيع غيرها من المخبوزات الريفية كالقرص والفطير الفلاحى غير المتوفرة بمحلات البقالة بالإسكندرية بسهولة، وزاد من تعجبها عندما رأت ابنها يوسف يجرى نحو آدم فرحا حاملا بيده كرة قدم.

فسألته ثريا : إلى أين أنت ذاهب يا يوسف بتلك الكرة؟

فرد آدم على تساؤلها بسرعة : لقد وعدته اليوم أن نلعب مبارة كرة قدم سويا.

صمتت ثريا وارتسمت على وجهها كل علامات الدهشة وهى ترى آدم يصطحب يوسف خارج المنزل متلاشيا أنه شاب غريب بالبيت وتعامله معهم كأحد أفراد الأسرة وعدم شعوره بالحرج من وجوده كضيف، فتلقائية تصرفاته كجعلتها في حيرة من أمره هل هو طيب ساذج أم شاب متهور أهوج لا يحسب تصرفاته ولا يضع لها قيداً.

وفى مساء هذا اليوم وعند تمام السابعة رن جرس التليفون، وما أن ردت ثريا على التليفون حتى ارتفع صوتها عاليا كالنفير وصاحت غاضبة :

من غير المعقول كلامك يا كرم، هل تم هذا الموضوع فجأة، هل سفرك خارج مصر جاء بدون ترتيبات، والآن وقبل سفرك بيومين تخبرنى بهذا الكلام، لماذا لم تخبرنى من قبل لأتدبر أمرى وأبحث عن سائق آخر بديل لك ليعمل على التاكسى؟ ماذا سأفعل الآن وأنت تخبرنى بسفرك خلال يومين للعمل بالأردن.

وبغضب شديد قالت :

أنت تعلم جيدا أنى لا أحب أن أكون بصحبة الفرقة سواء عند الذهاب للحفلات أو عند الرجوع منها، فهم يتناولون الخمر وأنا أكره ذلك، كيف سأذهب وحدى الآن وأنا لم أبحث عن سائق جديد أثق به . . . لعنة الله عليك يا كرم.

وكررتها كثيرا : لعنة الله عليك يا كرم.

فما كان من كرم إلا الصمت لمدة طويلة وفى سره يلعنها مائة مرة.

كانت كلمات ثريا سريعة ومتلاحقة، لقد وقعت بمأزق شديد ولكن ماذا تفعل؟! فطلبت منه أن يأتى لها بمفاتيح التاكسى ورخصة السيارة

حتى تحاول أن تحل المشكلة التي أوقعها فيها، ثم أغلقت السماعة وهى تهمهم بشتائم كثيرة.

وجلست ثريا على الأرض تبكى، فها هى تلك المرأة بكل جمالها وجبروتها وشخصيتها التي تبدو قوية أمام الجميع تبكى.

فأسرع إليها آدم يسألها لماذا كل هذا البكاء، ما الأمر الذي يستدعى كل هذا العناء؟

فأجابته شمس والحزن يتمكن منها :

أمي تعتمد على كرم في كافة الأمور، فهو الذكرى الباقية منذ وفاة والدى، والشخص الوحيد الذي كان يعتمد عليه في كل شيئ يذهب إلى الحفلات ويعود إلى البيت تستطيع أن تعتبره اليد اليمنى والمساعد له ويأخذ مقابل ذلك الكثير من المال غير أنه الشخص الوحيد الذي تثق به أمي بعد رحيل أبى، ففى أوقات كثيرة كان يحميها من رذائل البشر، ووجوده معها وبجوارها يطمئنها، وفى الأيام الخالية من الأفراح يتقاسم مع أمي الربح الناتج من تأجيره للتاكسى، ورغم علم أمي بأنه يأخذ معظم الربح ولكن ما باليد حيلة فلا بديل أمامنا.

هز آدم رأسة قائلا: لقد فهمت.. لقد فهمت.

وجلس آدم بالردهة على مقعد خشبى كان يصدر عنه أزيز كلما اعتدل آدم في جلسته عليه.

فقطع هذا الصوت حالة الصمت التي دبت في البيت فجأة، ثم قال آدم بهدوءه المعتاد : أستطيع أن أكون البديل لكرم ما رأيكم؟!!

رفعت ثريا رأسها نحوه وقالت على عجل : وهل تجيد القيادة يا أدم؟

أجابها : نعم، لقد تعلمت القيادة مرات كثيرة مع أصدقائى بالجامعة، وعلى قدر معلوماتى أعتقد أن كل المطلوب هو استخراج رخصة القيادة سريعا، وسأتولى أنا الموضوع.

فهدأت نفس ثريا قليلا، وقالت بصوت خافت : لعل وجود آدم في هذا التوقيت بالذات نجدة من الله لى ولأولادى.

ثم وجهت كلامها لآدم قائلة : ولكن وجودك معنا في نفس البيت أمر غير لائق!! ماذا لو استأجرت الحجرة العلوية على السطح مقابل عملك معى؟

أجابها آدم : بالتأكيد أتمنى ذلك.

تهلل وجه ثريا بالفرحة واصطحبت آدم إلى الغرفة التي سيسكنها على السطح، فوجدها ضيقة ومظلمة، فوعدته ثريا أنها ستقوم بتنظيفها. وبالفعل في صبيحة اليوم التالى قامت ثريا بتنظيف الحجرة ووضع أريكة قديمة كانت موجود لديها وأحضرت الفرش المناسب ووضعته عليها وعندما عاد آدم من الكلية فوجىء بمصباح كبير يضىء الحجرة

وشعر أنها المحراب الذي سينعم فيه بالهدوء، فأخيرا سيستمتع برسم لوحاته بعيدا عن الجميع.

وبعد عدة أسابيع كان خلالها يستيقظ كل صباح ساعيا وراء استخراج الرخصة بلا كلل أو ملل حتى استطاع أن يحصل على الرخصة أخيرا وأصبح البديل لكرم السائق ،وأيضا صار فردًا من الأسرة، فلا غربة بوجوده ولا خجل.

وصار له دخل جيد من النقود، بحيث يستطيع أن ينفق على عامه الدراسى الأخير في كلية الفنون الجميلة.

كانت لوحات آدم هنا وهناك بالحجرة يتأملها يوسف بشغف وتجذب شمس إليه يوما تلو الآخر وكان وجوده ببيت ثريا يثير دهشة كل أهل الزقاق، فكيف لشاب غريب أن يسكن ويقيم في نفس البيت الذي به فتاة رائعة الجمال مثل شمس؟

فكانت ثريا تدافع عنه بشدة بأنه شديد الخلق، ولم يصدر عنه ما يشوبه وكانت دائما ما تردد : لولا آدم ما استطعت أن أعيش، لقد أرسله الله لى في الوقت المناسب، وأنه شديد الأمانة يعطيها كل الربح من التاكسى دون أن يسرق منه جنيها واحدا، فكانت ترى في وجوه بعض الجيران علامات التعجب وتسمع من البعض الآخر الكثير من التساؤلات فكانت تؤكد لهم أن دخلها من التاكسى زاد للضعفين

عندما تولى آدم قيادته بدلا من كرم، حتى أنها أصبحت بغير الحاجة للعمل في الأفراح.

وذات صباح وأثناء عودتها من السوق قابلها الشيخ محمد، هذا الرجل التقي الذي كثيرا ما دافع عنها، ولكنه استوقفها وقد بدا على ملامحه بعض من الغضب والريبة، وسألها : هل مازال هذا الولد آدم يسكن معكم يا ست ثريا؟

أجابته ثريا : نعم يا شيخنا، إنه ولد مظلوم من زوجة أبيه، ولم أجد منه أى سوء تصرف، ويساعدنى في كل شيئ، ثم ضحكت ثريا وقالت: أتعلم يا شيخ محمد أنه يذاكر ليوسف أيضا، ولأول مرة يحصل يوسف على درجات جيدة بالامتحانات بعد أن كان دائم الرسوب، وشمس بنتى تلح على أن تلتحق بالجامعة رغم حصولها على الدبلوم منذ عامين.

فسألها الشيخ محمد : وهل كرر ما فعله سابقا ورسم إحداكما عارية؟

أجابته ثريا : لا لا إنه أثناء دراسته يلتزم المكوث بغرفته التي يستأجرها بالسطح ويرسم ما يقول عليه مشروعًا لا أعلم بالضبط، ولكنه لم يرسمنى ولم يرسم ابنتى أنا أثق في ذلك.

فهز الشيخ محمد رأسه قائلا : الحمد لله الحمد لله، كنت أخشى أن يكون هذا الولد فاسقًا ولكن اطمئن قلبى بكلامك، أعتقد يا ست ثريا أنه يقيم معكم قرابة خمسة أشهر؟

أجابته : نعم يا سيدنا.

فأخبرها : ولكن الأمر خطير يا ثريا، فأبنتك شابة جميلة، وهو شاب بنفس العمر تقريبا، ولا يصح وجودهما معا، ما رأيك أن يستأجر الحجرة الصغيرة بمدخل بيتى، علمت منك أنه الآن يكسب بعضًا من المال من قيادته للتاكسى، وعلمت من بعض الجيران أنه يرسم بالأفراح مقابل بعض النقود، فلا داعي لوجوده معكم الآن، ومن الأفضل أن يسكن بعيدا منعا للقيل والقال وأنا أخشى على ابنتك.

صمتت ثريا لحظات وقالت له : سأفكر بالأمر، أنا حقا أعتبرته ابنى وهو يتعامل مع شمس ويوسف كأخواته، ووجوده إلى جوارنا ساعدنى كثيرا..

قاطعها الشيخ محمد قائلا : أجل أجل أعلم كل هذا الكلام، ولكن واجبى أن أنصحك يا ثريا.

ثم تركها وانصرف.

ظلت ثريا ثابتة مكانها لا تتحرك تفكر في كلام الشيخ محمد، وكيف تخبر آدم بهذا الموضوع رغم مساندته لها ومساعدته لها في ظروفها الصعبة، وكأنه الجواد الرابح في مضمار حياتها.

رجعت ثريا إلى بيتها فوجدت شمس في المطبخ تعد الطعام بينما يوسف لم يكن عاد من المدرسة بعد، وكذلك آدم الذي كان بالجامعة، فأسرعت شمس تحمل عن أمها مشترواتها، فوجدت دموعها تتساقط على وجها ، أمسكت شمس بيد ثريا وقبلتها ثم نظرت إلى فيض الدموع المنهمرة والى عيونها الملتهبة باللون الأحمر من شدة البكاء، فلم تسألها عن سبب بكائها ولكنها أخذت تهدئ من روعها وحزنها بتقبيل جبينها وكف يدها، ثم خلعت عنها طرحتها التي تلف بها شعرها.

وساندت خطواتها حتى حجرة النوم، ووضعت رأسها على الوسادة برفق، وتركتها دون أن تحاول أن تقتحم حرية أمها بالسؤال عن سبب حزنها.

كانت شمس بمثابة أم عاقلة، رغم إحساسها الشديد بذاتها، فالبرغم من صغر سنها وبوفاة والدها تأكدت أن الحياة صعبة، فكانت هي السند المعنوى لأمها ثريا، فأحيانا تكون الصديقة والأخت وأحيانا أخرى تكون الابنة.

ظلت شمس تفكر في السبب وراء حزنها ولكنها لم تتوصل إلى السبب، وخاصة أن مشكلتهم الرئيسية في توفير دخل يكفل لهم قوت يومهم قد انتهت تماما بمساعدة آدم لهم مقابل إقامته معهم.

وأثناء تفكير شمس في السبب وراء حزن أمها سمعتها تنادى عليها يا شمس يا شمس هرولت شمس نحوها تجيب نداءها ثم جلست بجوارها على السرير فنظرت ثريا إلى ابنتها تتفحصها وقد بدا على وجهها الخوف والقلق فكانت تتنفس بصعوبة وكأنها تحمل أثقال الكون فوق كاهلها، ثم أخذت نفسا عميقا وقالت:

ما رأيك أن تتزوجى آدم؟

برقت عين شمس وظلت صامتة طويلا، ومئات من الأسئلة تدور برأسها حتى قطع الصمت مجيء يوسف من المدرسة بصحبة آدم.

وهنا دخل آدم عليها بوجه بشوش والسعادة تغمره، فقالت له ثريا أسعدنا بأخبارك.

فقال والفرحة تغطى وجهه: اليوم تم ترشيحى لأكون ضمن فريق العمل بورشة دكتور سليم، الذي يعد أبرز وأهم الأساتذة بالجامعة.

تهلل وجه ثريا ثم نظرت ناحية ابنتها شمس وقالت لها:

أعتقد أن آدم من اليوم الرجل المناسب الذي سوف نعتمد عليه بحياتنا. وبعين تحمل هموم الدنيا نظرت ناحية آدم وقالت له: أنت بالفعل

رجل يا ابنى، لقد خسرك والدك كثيرا، ولكنك قدرنا كى تكون السند والمعين لنا رغم صغر سنك.

وهنا ابتسم آدم بدهاء شديد ثم نظر ناحية شمس، وقال لها ما رأيك بقول والدتك يا شمس؟ اندهشت شمس من كلامه وكأنه على عهد مع أمها بالكلام في أمر زواجهما.

وتعجبت لأمرهما واندهشت فهى ترى آدم مجنونًا بطموحه، وأوقات كثيرة لا تفهم ما يقوله ولا تفهم حديثه عن الفن والرسم فكيف ستعيش مع هذا المجذوب بالفن؟!!

وانصرفت شمس عنهما وكأنها في حالة تنويم مغناطيسى أو في رحلة تقودها فيها الأقدار إلى العذاب، وتركته يستكمل حواره مع ثريا وعن طموحاته الشديدة بأن يكون من أكبر فنانى مصر التشكيليين.

كان آدم شديد الذكاء، فلمح بعين ثريا رغبتها أن يكون زوجًا لأبنتها ووجدها فرصة شديدة الثراء، فلن يجد ما هو أحسن من ذلك بيت يأوى إليه، ونقود يتحكم فيها، إضافة إلى وجبات من الطعام والشراب بلا عناء ودون بذل أى مجهود.

بينما كان آدم بالنسبة إلى ثريا هو الأمان، وخاصة أنه أثبت جدارته بحمايتها في كل حفلات الزفاف التي تذهب إليها، غير أمانته في الحفاظ على دخل التاكسى مصدر رزقهما بجوار المناسبات التي تغنى بها.

ولكنه كان أشد ذكاء من ثريا، ولم يبدأ بطلب الزواج من شمس مستغلا لهفة ثريا على زواج ابنتها منه والتي كانت واضحة في كل كلامها.

ومرت الأيام كانت فيها ثريا تلح على شمس بالموافقة على هذا العرض، وذات يوم قالت لها ثريا غاضبة أخبرينى ما الذي لا يعجبك فيه؟ لقد رفضتى من قبل كرم زوجا لك ،

وكانت النتيجة سفره إلى الخارج ضاربا بعرض الحائط العشرة والسنين ماذا تظنين نفسك؟ أنت ابنة عالمة درجة عاشرة!! وأبوك كان طبالا، هل تفهمين؟ طبالا ليس طبيبا أو مهندسا أو حتى ساعيا مثل والد آدم.

فصاحت فيها شمس وقالت : لا يا أمي لن أوافق على آدم زوجًا لى، فأنا أراه غريب الأطوار. . . . يسهر الليل كله ولا ينام، ويصمت كثيرا، وغالبا ما يكون شاردا، هو لا يعيرني أى اهتمام ولا أجد في الكلام معه أى سعادة، هو مجرد شخص جذبنى إليه شغفه بالرسم وروعة تفاصيل لوحاته لا أكثر من ذلك.

وبكت شمس وقالت : من فضلك يا أمي لا أريده زوجًا لى أنا لا أراه الزوج المناسب.

فبكت ثريا واحضتنت شمس وقالت لها : ولكنه الوحيد الذي وقف بجوارنا بعد وفاة والدك رغم صعوبة ظروفه، ونحن بحاجة إليه وهو أيضا بحاجة لنا، نحن لم نر منه غير الخير.

صاحت شمس : وأنا أحبك يا أمي ولا أحب أن أغضبك، ولكن آدم ليس الزوج الصالح، هل نسيت كلام بثينة عنه، فربما ذات يوم نجده يأتى لنا بالنساء كى يرسمهن.

غضبت ثريا وقالت باستنكار : ومن سيتزوجك يا صاحبة القصور، هل نسيت نفسك؟ أنت مجرد فتاة تافهة لا تملك المال ولا الجاه ولا حتى الأسرة التي تستند عليها ، ماذا لديك يا شمس ليأتيك هذا الزوج المرسوم بخيالك!! إن تعليمك متوسط ولا تجيدين أى عمل بل ترفضين العمل بأى مكان، هل نسيت عندما طلبت منك أن تعملى بائعة بمحل الملابس الذي يعمل به الولد لطفى جارنا بزنقة الستات؟ هل تتذكرين كلامك حينها وماذا كان ردك؟!!!

الرفض يا شمس، وتحملت المزيد من الأعباء من أجلك ومن أجل أخيكِ واستمر العمل بالأفراح لدخلها الأكبر والأسرع.

تنهدت ثريا ثم هددت شمس قائلة :

فلتعلمى يا شمس أننا بحاجة لوجود آدم في حياتنا وبدونه سنموت جوعا.

نظرت شمس إلى أمها بضجر

وانصرفت إلى حجرتها، ثم أوصدت الباب بعنف وهى تقول لها بصوت عال : فلتفعلى ما يعجبك وما يروق لك.

وجاء الوقت المناسب عند إعلان نتيجة آدم وحصوله على شهادته الجامعية، كانت الفرحة على وجه ثريا كبيرة، وانطلقت ناحية الشباك تنادى على بثينة وتخبرها بنجاحه، لعل والده يرضى عنه، فردت عليها بثينة ببرود قائلة : إن سرور لا يهمه نجاحه أو رسوبه، وقد نسى تماما آدم.

صعقت ثريا من كلام بثينة وقالت : يا بثينة هو ابنه الذي كان يحلم بأن يراه حاصلا على شهادته الجامعية، فمرات كثيرة كنت أرى آدم يبكى وكنت أسأله عن السبب فيخبرنى أن أباه سرور يراه في الصباح ويتنكر منه بل يقذفه بشتائم لا حد لها.

ضحكت بثينة وقالت : ماذا تريدين يا ثريا؟ أتريدين آدم أن يتزوج ابنتك ويأتى إلى بيتنا الصغير ليسكن معنا؟ لا مكان له ولا لابنتك.

اشتعل الغضب برأس ثريا وأوصدت نافذتها بعنف ودخلت تنادى على آدم من على سلم البيت، فسمعها في حجرته العلوية بالسطح فهرول إليها مسرعا وهو يعلم جيدا لماذا تناديه، فبعد أن سمع حوارها مع زوجة أبيه من فوق سطح البيت توقع ما الذي تريده منه ثريا،

ووقف ثابتا يترقب كلامها، ففركت ثريا أصابع يدها ثم نظرت في عينيه بحدة وقالت له : ما رأيك بالزواج من شمس؟

انفرجت أسارير آدم شديدا، فطالما حلم بهذا الأمر ولكنه كان يخشى من الإفصاح عما بداخله.

هولا يعلم هل يحب شمس حقا أم يراها فرصة لحياة مستقرة، فأحيانا كثيرة كان يجد فيها قوة والدته واعتزازها بنفسها كسيدة من نساء المجتمع الراقى وأصحاب المقام الرفيع، وأحيانا يرى فيها الحنان والنفس الطيبة التي حرم منها.

وتاه آدم في ذكرياته لبرهة من الوقت ثم أفاق على صوت ثريا وهى تسأله : لماذا لم تجاوبنى؟ فلم أسمع منك أجابة واضحة على سؤالى؟

فنظر إليها بسعادة بالغة وقال لها : وماذا أقول بعد قولك يا أمي؟ أنا بالفعل أعتبرك أمي، ومن المؤكد أريد الزواج من شمس اليوم قبل الغد.

وبمجرد أن سمعت ثريا رأيه هرولت إلى شمس التي كانت تشاهد التلفزيون وكأنها في عالم آخر منفصلة تماما عن الواقع بسبب غرامها الزائد بكل الأفلام العربية، فلم تنتبه لحديث أمها مع آدم، ولكنها فوجئت بها تقبلها وتطلق الزغاريد في كل أرجاء البيت، حتى علم القريب والبعيد بأن آدم سيتزوج من شمس.

وبدأت الترتيبات البسيطة للزواج في نفس البيت. فاكتفت شمس بشراء حجرة نوم جديدة قامت ثريا بفرشها وشرائها لها بمبلغ مالى كانت قد ادخرته من قبل وقررت ثريا أن تكون الحجرة التي ستتزوج فيها شمس هى نفس الحجرة التي قضت بها سنوات طفولتها، ولكن بعد أن قامت ببيع سرير شمس المعدنى القديم.

وجاء يوم الزفاف، ومع ساعات الصباح الأولى كانت ثريا منهمكة بالإشراف على وضع الزينة والإضاءة على سطح البيت والابتسامة تعلو وجهها والسعادة تغمر قلبها، وعندما أسدل الليل ظلامه بدا الزقاق كعروس تتزين بالمصابيح الملونة والمضاءة على جنباته، وعند باب البيت وقفت ثريا لاستقبال كل الجيران والأصحاب وجاء الجميع يشاركها الفرحة فيما عدا والد آدم، الذي غاب عن الحضور، فلاحظ الشيخ محمد غياب سرور، ووجد أنه من الضرورى واللائق أن يذهب إليه ويأتى به إلى زفاف ابنه، وبالفعل نزل الشيخ محمد على درجات سلم بيت ثريا متجها إلى بيت سرور وطرق الباب فوجده يفتح له الباب وعيناه مغرورقتين بالدموع فابتسم الشيخ محمد وقال له يا رجل لا تبكِ إنه يوم زفاف ابنك ويجب أن تكون بجواره.

رد عليه سرور : وهل هذه زيجة مناسبة يا شيخ محمد؟ هذا الولد لم يطع أوامرى واختار الالتحاق بكلية فاسدة لا مستقبل، لها واليوم

يتزوج بابنة مطربة أو عالمة درجة ثالثة بلا شرف، هذا الولد مجنون. . . مجنون، حقا نحن فقراء ولكننا شرفاء.

رد عليه الشيخ محمد : أشعر بك وبمدى حزنك، ولك الحق في كل كلمة، وأعلم أنك كنت ترغب بمستقبل آخر لابنك ولكن هذا اختياره فليتحمله، ولكن اعذرني يا سرور ليس لك الحق أن تتهم الست ثريا بأنها معدومة الشرف، فهذه مهنة زوجها سابقا، وهي لم تملك من الدنيا غير صوتها ولم تجد البديل.

رد عليه سرور : ألا ترى يا شيخنا الملابس العارية التي تعود بها كل ليلة من الأفراح التي تغنى فيها؟ أليس هذا كافيًا لاتهامها بانعدام الشرف.

أومأ الشيخ محمد رأسه نحو الأرض قليلا مستغفرا مارا بسبابته على السبحة الزرقاء خاصته، ثم وجه رأسه إلى أعلى مشيرا بيده اليمنى إلى السماء قائلا إنه الله عز وجل من يحاسبنا وليس من حقك أن تتهم الست ثريا بانعدام الخلق والشرف يا سرور استغفرالله، فهو فقط العالم بما في القلوب هى بالفعل تتجاوز في ملابسها، ولكن هذا لا يعطينا الحق باتهامها بالباطل، هذا قول زور. . . وغيبة لها، والحقيقة لا يعلمها إلا الله وهذه السيدة لم نر منها إلا حسن الخلق مع كل الجيران وتسعى لتربية أولادها.

استعذ بالله يا رجل وهيا معى لتبارك زيجة ابنك من ابنتنا شمس.

فاستغفر سرور سريعا وأستأذن الشيخ محمد كى يبدل ملابسه .

وبالخارج عندباب البيت وقف الشيخ محمد ينتظره حتى خرج إليه وبصحبته صعد درجات سلم بيت ثريا لأول مرة رغم جيرته لها منذ سنوات طويلة مصطحبا بيده ابنته المسكينة ليلى التي أخذت تردد آدم عريس . . . آدم عريس .

وبمجرد وصول سرور إلى سطح البيت سقطعت عين آدم على أبيه فقفز من مقعده المخصوص له أعلى مصطبة تحاوطها الورود واللمبات المضاءة والملونة ورمى آدم جسده في حضن أبيه باكيا حد النحيب ، فضمه سرور بشدة كمن يضم سنوات عمره ودنيا كان يتمنى ألا تخذله .

ونظرسرور في عين آدم ورأى فيها تلك النظرة الدافئة التي ورثها عن أمه جميلة ، وتذكره وهو طفل يحبو ورجعت الذاكرة لسنوات طويلة رأى فيها جميلة وهى تمشط شعر آدم وتغنى له وتهدهده ، كانت أيامًا جميلة ولكنها رحلت ، رحلت برحيل جميلة ، وبكى سرور . . . بكى شديدا ووارى بكاء عينيه بمنديل قماش أخرجه من جيب سرواله ، فمسح به دموعه المنهمرة حتى لا يلتفت إليه الجيران والمدعوون وتعلل بحرارة الجو وأنه يقوم بمسح العرق المتصبب على وجهه .

وفى ذلك الحين ، كانت ليلى ترقص فرحة متنقلة هنا وهناك بين المدعوين والجيران وهى تردد : آدم أخى عريس ، فيضحك الناس

على سذاجتها ونظراتهم تكشف ما يتلفظون به في سرهم دائما بأنها أخت آدم المجنونة .

فلاحظ آدم فرحة ليلى ، فأمسك بيدها وأخذ يقبل فيها ويربت على رأسها برفق متحاشيًا نظرات البعض نحوها وسخريتهم منها ، بينما كانت العروس شمس بثوبها الأبيض شاردة في أمرها ، فهناك شيئ ما بداخلها يجعلها تشعر بالريبة تجاه آدم ، ولا تعلم ما هو بالضبط ، وما السبب وراء هذا الشعور .

وفجأة ظهرت بثينة بحفل الزفاف وسط الجيران توزع الزغاريد وتهنئ ثريا وتتقدم نحو آدم تبارك له وتقبله ، فنظر آدم نحوها ورمقها بعينيه كنسر جريح لم ولن يقبل الهزيمة ، ومد يده يسلم عليها وبقلبه مئات من الطعنات التي صمم أن يردها إليها ، ولكن كيف؟!

ربما ذات يوم وفى الوقت المناسب . .

ومر الوقت سريعا وانتهى العرس الذي قامت فيه ثريا بالغناء كما لو لم تغنِ من قبل وشاركها في الغناء بعض من العازفين المجهولين الذين يشاركونها في إحياء الأفراح التي تذهب إليها .

وانقضت الليلة سريعا وعاد كل إلى بيته وحياته مبتهجا ، بينما دخلت شمس إلى هذا العالم الذي تسمع عنه من بعض الصديقات المتزوجات أو من بعض الجارات . . . دخلت إلى حجرة الزوجية ، تلك اللوحة

الخالية من الرتوش، فاللون بها صحيح لا يمكن تزييفه بألوان ربيعية لو كانت اللوحة صفحتها سوداء.

كانت مرتابة كثيرا ويساورها الخوف والقلق، لا تعلم ما الذي يجب عليها أن تفعله في ليلة كهذة، فجلست على المقعد الخشبى الموجود أمام المرآة الكبيرة تلعب بأناملها الرقيقة في مستحضرات التجميل التي نظمتها لها ثريا بدقة، ثم تشبك أصابع يدها بقوة وتنظر إلى وجهها وفستانها تتأمل جمالها وتنتظر مجىء آدم نحوها ليخلع طرحتها البيضاء والمرصعة من فوق شعرها الذهبى المسترسل على كتفيها، وطال انتظار شمس على المقعد فأخذت تمسح بيدها العرق الذي كان يتصبب على وجنتيها اللتين أشتعلتا بحمرة الخجل فامتزجت واختلطت على وجهها ألوان المساحيق التي كانت تتجمل بها، ولكن وهج شمس وجمالها كان طاغيا على أى لون.

وظلت شمس على مقعدها تنتظر مجىء آدم نحوها كما كانت تشاهد تلك المواقف بالأفلام العربى التي تعشقها وتصنع منها عالمها الخاص، ولكنه كان يتأملها فقط وينظر إليها بشغف مجنون، يختلسها بنظرات مسروقة كلص وظل بعيدا عنها جالسا على حافة الفراش.

وطال انتظار شمس، وفوجئت بآدم يقوم بخلع حلته السوداء ثم ألقى برباط عنقه على الأرض مرتديا جلبابًا ريفى بسيط ثم ألقى بجسده

على الفراش متأملا سقف الحجرة لمدة طويلة دون أن يتكلم ولو بكلمة واحدة.

اندهشت شمس، فقامت بنزع طرحتها البيضاء وألقت بها على الأرض بجوار رباط عنقه ولكن لم تلق بجسدها على الفراش إلى جوار جسد آدم، بل ظلت مكانها على المقعد تتأمل آدم، وخاصة بعد أن ذهب في سبات عميق، وظلت تتأمل ملامح هذا الإنسان الذي سيلازمها باقى العمر حتى غلبها النعاس هى الأخرى بمكانها على المقعد.

و بعد مرور بضعة ساعات..

استيقظ آدم من نومه عندما سمع أصوات العصافيروهى تغرد عند النافذة، فنظر تجاه شمس فوجدها في نفس مكانها من البارحة غارقة في النوم بثوب زفافها، فأسرع إليها يوقظها برفق، فانتفضت شمس على يد آدم يتحسس وجهها ويلمس شعرها جالسا على ركبتيه أمامها مبتسما مقبلا يدها قائلا لها : مبروك يا شمس حياتى.

فركت شمس عينيها وشعرت بالاندهاش!!

وقبل أن ترد عليه فوجئت به يسألها : لماذا لم تخلعى ثوبك بالأمس يا شمس؟ هيا يا قطتى الحلوة ارتدى قميص نومك والقِ بجسدك على الفراش فمن المؤكد أن نومك على المقعد أرهقك.

ابتسمت شمس وأجابته : نعم بالفعل أنا مرهقة جداً .

وبدأت شمس بنزع فستانها من أعلى عند الصدر ، فسقط سريعا على الأرض ، فرمقها آدم بكل حواسه وهو جالس مكانه وعندما لاحظ مراقبتها له قام بتخبئة عينيه خلف كفيه مثل طفل خجول حتى لا يبدو عليه الاهتمام بتصوير تفاصيل جسدها بكل حواسه ، ولكى يبدو أمامها كمشغول عنها .

فارتدت شمس قميص نومها الزهرى المصنوع من الحرير ، وابتسم ثغرها خجلا وهى تمسك بزجاجة عطرها ، ووضعت من أريجها على جسدها ففاح عطرها كزهرة الربيع ، وهى تبتسم في شعاع الشمس .

فارتبك آدم وانصرف خارج الحجرة مدعيا رغبته في قضاء الحاجة .

وانتظرته شمس على فراش الزوجية المشغول بوردات ذهبية وفركت بأصابعها تلك الوردات ، وطال انتظار شمس وطال ولكن آدم لم يرجع إلى حجرة نومه إلا عند سماعه صوت ثريا وهى تعد طعام الإفطار بالمطبخ حينئذ خرج آدم من دورة المياه وقد رسم على وجهه سعادة بالغة ثم أسرع إلى ثريا يقبل يدها ويشكرها على تعبها وكرمها الزائد معه .

تهلل وجه ثريا وقالت : أنت من اليوم ابنى ، وهذا بيتك ، لقد رزقنى الله بوجودك إلى جوارنا .

ثم سألته : هل شمس مازالت نائمة أم أذهب إليها لأوقظها؟

فأجابها سريعا : بل استيقظت، فلتذهبى إليها وسأذهب أنا لأوقظ يوسف من نومه.

فهرولت ثريا إلى ابنتها ثم طرقت باب الحجرة ونادت عليها، طفلتى الجميلة وأجمل عروسة، هل أستيقظتِ أم مازالت في حلمك الوردى؟

فردت شمس بجمود : تعالى يا أمي أنا استيقظت منذ قليل.

فدخلت ثريا الحجرة وعلى وجهها ابتسامة كبيرة فانقبض قلبها عندما لاحظت جمود وجه شمس، فلا وجود لعلامات الفرح أو الحزن، كان مجرد وجه ينظر في وردات الفراش عابثا بالخيوط.

فسألتها الأم على الفور : ما بك يا حبيبتى؟ هل أساء آدم إليك؟! ولم يتعامل معك بلطف؟!

صمتت شمس ولم تجب على سؤال أمها.

فزاد القلق بقلب ثريا وسألتها : ماذا حدث يا شمس ماذا بك يا ابنتى لماذا أنت صامتة.

أعلم أنها حياة جديدة وربما لم تأخذى الوقت الكاف لتشعرى بالحب تجاه زوجك، ولكن مشاعرك تجاه آدم ستأتى لاحقا بمرور الوقت والسنين والعشرة، هكذا قالت لنا الأمهات والجدات.

فردت شمس : أي مشاعر ماذا يا أمي .

أنا قضيت طيلة ليلتى نائمة على هذا . . . وأشارت بيدها إلى المقعد ثم أغمضت عينيها وتنهدت وقالت : لقد غرق آدم بالنوم ولم يفتح فمه بكلمة وتركنى حتى غلبنى النعاس مكانى .

فبدا على وجه ثريا القلق ، وقالت لها بلهفة : ثم ماذا حدث بعد ذلك؟

فردت شمس لم يحدث شيىء يا أمي سوى أنه أيقظنى منذ قليل وطلب منى أن أستبدل ثيابى متحاشيًا النظر في وجهى .

فصاحت الأم : ماذا؟

هذا شيىء غريب ولكن ربما كان متعبا بالأمس .

وغابت ثريا بالتفكير عن شمس قليلا . .

وقالت :

هيا هيا اغسلى وجهك وتعالى لنتناول طعام الإفطار سويا .

وتركتها ثريا وذهبت إلى المطبخ تتحدث إلى نفسها وتقنع عقلها بتعب آدم وإجهاده ليلة أمس ، ولكن قلبها كان مستاء جدا من تجاهل آدم لشمس ، فالغريب بالأمر أنه لم يحاول أن يقترب من ابنتها ولو بالكلام

المعسول وقطع تفكيرها نـداء يوسـف لهـا كـى تسـرع بإعـداد طعـام الإفطار، قائلا لها جوعان يا أمي فلم أكل شيئا من البارحة!!

وجلس آدم إلى جوار شمس أمام المنضدة العامرة بكل مـا لـذ وطـاب ولكن في حدود إمكانيات ثريا المادية، وتناول كل منهم الطعام في جـو يسوده الريبة والقلق، وبعقل كل منهم على حدة مئات مـن الأسـئلة، وبعد الأنتهاء من تناول الفطـور جلـس آدم بالردهـة الصـغيرة للبيـت يشاهد التلفاز، فنادت ثريا ابنتها لتلحق بهـا في حجرتهـا ثـم جلسـت بجوارها تتكلم معها، وقالت لها : أنت وآدم صغيران وتحتاجان بعض الوقت لتقترب مشاعر كل منكما نحو الآخـر فلتسـاعديه يـا صـغيرتى وحاولى أن تتخلى عن حيائـك وخجلـك بعـض الشـيىء، فهـو الآن زوجك.

ثم قبلتها في جبهتها ونظرت إليها نظرة طويلة تتأمل فيها صغيرتها التي صارت عروسًا وبها قلق يساور قلبها وخوف من عدم اسـتمرار تلـك الزيجة.

وقطعت شمس حالة الصمت بينهما قائلة : سأحاول يا أمي.

ومرت عدة أيام وظل الحـال كمـا هـو ولم يحـاول آدم أن يقـترب مـن شمس أو يفكر ولو للحظة أن يداعب مشاعرها بكلمات المحبين.

بل ما كان يثير قلق شمس ويجعلها تشعر بالخوف معه هو تناقض أفعاله، فتارة تجده يتعمد أن يظهر مشاعره تجاهها أمام والدتها، فيخطف قبلة من على خدها أو يطعمها بفمها، وتارة أخرى تجده منزويا داخل جسده نائما كالطفل متجنبا وجودها معه ومتجنبا الاقتراب من جسدها كلما حاولت أن تقترب منه بمجرد أن تمسك يده فتندهش من عجيب أمره، بينما يزداد تأكيد ثريا أن سبب عدم رغبة آدم بابنتها يرجع إلى خجل شمس وحيائها في غرفة النوم.

وتمر الأيام ويعاود آدم عمله كسائق للتاكسى بالنهار وبالليل يعمل في ورشة الدكتور سليم الفنية، وزاد انشغال آدم عن شمس وزادت المخاوف بقلب ثريا حتى جاء اليوم الذي قررت فيه أن تتكلم إلى آدم وتسأله عن السبب وراء ابتعاده عن ابنتها وعن مصير هذا الزواج الشفهى غير المفهوم وغير المبرر.

وعند تمام العاشرة وبعد عودة آدم من عمله بالورشة الفنية أو المرسم جلس على الأريكة منهكا.

ورن جرس التليفون فأمسكت ثريا بالسماعة فإذا بصوت نسائى ناعم يسأل عن آدم، فدب الغيظ داخلها بينما شمس لا تبالى بمن يتصل أكان رجلاً أم سيدة فالكل عندها سواء، وتعللت ثريا بنوم آدم وعدم قدرته على الكلام بالتليفون، فقالت لها صاحبة الاتصال بأنه من الضرورى

جدا الذهاب في الغد إلى ورشة الدكتور سليم في الصباح لإتمام أعمال هامة، وأنها حاولت كثيرا الإتصال به ولكن هاتفه المحمول مغلق.

سمعت ثريا الرسالة جيدا وأغلقت السماعة وقلبها يثور بالغليان والضجر.

وصاحت في آدم : من تلك التي تتصل بك في بيتك يا آدم؟ هل جزاء إحسانى إليك هو تجاهلك لابنتى كل تلك المدة، ثم ضربت بيدها المنضدة وصاحت : ربما يكون لك علاقات نسائية خلف تلك الوداعة التي أراها في أفعالك!!

لقد كنت مخطئة ساذجة عندما رفضت الاستماع لزوجة أبيك بثينة، أنت غادر لا أمان لك.

وهنا كشر آدم عن أنيابه وبدا وجهه كوجه آخر لم تره من قبل وقال بنبرة حادة صارمة : ليس لك الحق في سؤالك عمن يكلمنى ويتصل بى فلست طفلاً ولكن سأجيب على أسئلتك بكل ترحاب. واعتدل آدم على الأريكة ثم وضع ساقًا على ساق وأخذ شهيقا وأخرج زفيرا طويلا قائلا: إنها صديقتى بالعمل، وأنا لست بالرجل الخائن والناكر للجميل ولكن ابنتك خجولة لدرجة أنها لا تعلم عن الأنوثة شيئًا فهى بعيدة كل البعد عن معرفتها بالنساء.

وقعت الكلمات على أذن ثريا مثل الطامة الكبرى، فدار رأسها وانخفضت حدة صوتها وقالت بنبرة منكسرة : هى مازالت صغيرة وأنت تعلم أنها خجولة . . . شمس ببراءة الأطفال وعليك أن تشملها بحبك .

فهب آدم واقفا وقال صارما : سأفعل أجل سأفعل .

ففوجئ بصرخة من شمس تقول والغضب يسيطر عليها : كيف تتهمنى في أنوثتى يا أحمق، لقد وكلتك أنوثتى فاكتسبت نفسى رجولة لم يعيها عقلك المريض بالذكورة، فما كان من آدم إلا أن اتجه إلى حجرته وخرج منها سريعا حاملا بيده مفاتيح التاكسى وألقى بها على المنضدة أمام ثريا وصاح فيها : تلك مفاتيح سيارتك فلتبحثى عن سائق غيرى فليس لدى الوقت الكافي بعد أن التحقت بالعمل في ورشة الدكتور سليم الفنية لأعمال الديكور والمشغولات الذهبية، إنها فرصة يتمناها أى شاب ولن أدعها تضيع من يدى .

فأسرعت إليه ثريا تتوسل إليه أن يعمل بالتاكسى لفترة حتى تبحث عن سائق وإلا سيموتون من الجوع فما يحصل عليه من مال نظير عمله بالورشة لا يكفى قوتهم وبالكاد يكفيه .

وفى ذلك الحين رد عليها آدم قائلا :

وأنا لا أرغب بالمزيد من المال فهذا يكفينى .

فاشتعل الغضب داخل ثريا ولكنها حرصت ألا يبدو على وجهها بل أخذت تتوسل إليه وتتذلل له حتى قبل أن يعود إلى العمل على التاكسى ولكن لفترة محدودة.

وظلت ثريا تائهة في حال ابنتها وتفكر في صديقته ومدى عذوبة صوتها ورقة حديثها والفرق بينها وبين شمس التي لم تكمل تعليمها ومدى سذاجتها وانغلاق تفكيرها وحياتها، وشردت في توقعات لا حصر لها من الأفكار المخيفة التي دسها الشيطان بعقلها لتزداد مخاوفها بمستقبل ابنتها وحياتها مع آدم!!!

وتوالت الأيام روتينية بغيضة وذات يوم عاد آدم من العمل متأخرا فوجد الكل نائما.

وعندما دخل آدم حجرته وجد شمس تنتظره في أوج توهجها فانجذب إليها وتطلع إلى تفاصيل جسدها الناعم من تحت ثوبها المصنوع من الشيفون الأزرق وبعين ثاقبة نظر إليها بقوة ثم قام بحل أزرار قميصه الذي تركه مفتوحا ولم ينزعه عن جسده وظل صامتا للحظات بعدها أخرج علبة سجائره وأشعل سيجارته ليطفىء بعضًا من الاشتعال الذي أصاب جسده برؤيته جسدها، وكانت المرة الأولى التي تراه فيه شمس وهو يدخن فكانت تتأمله بترقب شديد لم ينتبه له آدم بل أحضر لوحة كانت موجودة إلى جوار الحائط ضمن لوحات كثيرة ووضعها على الحامل الخاص بألواح عمله وأخرج فرشاته وبالتة ألوانه

من أعلى رف بدولابه الخشبى ونظر ناحية شمس وإلى تفاصيلها ثم ابتسم قائلا : ماهذا البراح الأزرق الذي أراه وكأنك الكون يا سيدة الكون .

فارتبكت شمس وشعرت بغرائزها تشتعل وخاصة عندما أطفأ آدم نور الحجرة فبدت مظلمة إلا من ضوء أباجورة خافت تسلل بخفة على جسد شمس الشمعى فتوهجت بحمرة نارية ، واقترب آدم من شمس ونفخ بشعرها فذابت كل أواصر جسدها وصارت حرة وبدأ يخلع عنها ملابسها واحدة تلو الأخرى حتى صارت عارية تماما فأغمضت عينيها وحلقت روحها في الرغبة وصارت نفسها تتأهب لإطفاء الحريق الذي اشتعل بحواسها ، ولمس آدم جسد شمس بأطراف أصابعه وعزف على تلالها مقطوعات موسيقية صاخبة كصخب رغبتها وجنون شفاهه في رقبتها وأخذت مشاعرها تعلو وتهبط مع منحيات جسدها المستسلم لكف يده عليها ، وفجأة اهتزت أصابعه وانسحبت يده بعيدا عنها فتسللت برودة ما إلى إطرافها وشعرت بقشعريرة تنتاب جسدها في لحظة وهن ، وفتشت بيدها عن يده فلم تجدها وفتحت شمس عينيها وشعرت بسكين غائر يطعن صدرها عندما وجدت آدم جالسا أمام لوحته مهموما بتصوير جسدها بفرشاته على اللوحة .

فضمت شمس ركبتيها إلى صدرها وأحاطت جسدها بذراعها كى تخفيه عنه وشعرت كمن ألقيت في قارعة الطريق عارية فمدت يدها

أمامها وسحبت ذيل قميصها تغطى عورتها وشعرت بنغز في صدرها وضيق كاد أن يهلك روحها فصاح فيها آدم : بالضبط يا شمس هذا ما أريده فلتبقي على هذا الوضع حتى أكمل لوحتى .

لم تستوعب شمس كلام آدم بالبداية ، بل أصابتها الصدمة بالصمت وشعرت بجفاف يصيب حلقها ، وهنا خرجت الكلمات من على شفاها متقطعة باردة مضطربة فلم ينتبه آدم لكلامها فكان مشغولا برسمها ، فرفعت صوتها قليلا : سأرتدى ملابسى يا آدم وأخرج إلى الردهة لأشرب الماء فأنا أشعر بجفاف في حلقى .

فصاح فيها كمن تلقى لكمه في وجهه : لا . . لا لن تخرجى أرجوك يا شمس لا تتحركى عن هذا الوضع الصادق ، وسأذهب أنا وأعود إلَيك بالماء سريعا ولكن عليك ألا تتحركى من مكانك وإلا ستفسد لوحتى ستكون لوحة عظيمة ، ما أجملك يا شمس وما أروع تفاصيل جسدك مع هذا الضوء ! . . كيف لم أنتبه لذلك الصدق فيك من قبل؟

وبمجرد خروج آدم من الحجرة شعرت شمس برأسها يدور ، فهى لا تفهم من أمره شيئا وشعرت بتنميل يدب في أطراف جسدها واتجهت نحو دولاب ملابسها بأقدام متثاقلة فبدت مثل السكارى ، ثم انتزعت جلبابًا من بين ملابسها واختارته ثقيلا لا يشف فأسدلته على جسدها سريعا فغطاه كاملا رغبة منها أن تحافظ على الباقى من عفتها أمام هذا المجنون غريب الأطوار .

وألقت بجسدها على الفراش كمن أخذ جرعة كبيرة من المخدر غير قادرة على الكلام ولا الحركة، ولكن بدت عيناها جاحظتين مفتوحتين تترقبان مجيء آدم وانفعالاته غير المتوقعة.

وعند عودة آدم حاملا بيده كوب الماء تحجرت قدماه مكانه برؤيته لها وهى مغطاة بالكامل من قمة رأسها إلى أخمص قدميها، فلم يستدل على وجودها إلا من خفقات دقات قلبها التي كانت تصعد وتهبط من تحت الغطاء، فظل واقفًا لبرهة من الوقت يفكر هل يوقظها أو ربما تكون قد أخلدت للنوم ثم هداه تفكيره بالذهاب إليها يوقظها، شمس. . . . شمس لقد أتيت لك بالماء.

فاعتدلت في جلستها وأخذت من يده كوب الماء بسرعة وتجرعته برشفة واحدة وبعدها أعادته إلى يده فارغا، ثم عاودت نومها، فأقترب منها آدم وقال لها : هل من الممكن أن تخلعى عنك ملابسك مرة أخرى وأعود لرسمك؟

فتنهدت شمس تنهيدة طويلة ثم أخفت وجهها عنه بوضع باطن يدها أمام عينيها كى تتحاشى النظر إلى وجهه وقالت بحدة غير معتادة لا. . . . لا يا آدم لا. . . لا.

لم يتأثر آدم بغضب شمس ولم يهتم ولو بطرح سؤال عن سبب غضبها بل ظل صامتا ورمى بجسده على الطرف البعيد من نفس الفراش حتى غلبه النوم.

وتوالت الأيام غريبة، وزاد قلق ثريا على ابنتها وأصبح شغلها الشاغل تلك الصديقة التي يكلمها آدم ليلا ونهارا وعدم مراعاته لمشاعر زوجته شمس، تلك المرأة المقيدة بحبال الزوجية الشفهية، فلا هى بكرٌ بمشاعرها ولا ثيب بجسدها.

وذات يوم طلبت ثريا من شمس وألحت عليها أن تنصاع لرغبات آدم برسمها، إذ ربما شغفه وحبه للرسم يكون السبيل إلى قلبه فيحبها ويتودد إليها.

فقالت شمس والدموع تنساب على وجهها، صعب يا أمي، تطلبين منى أن أكون. . وبكت شمس بكاء شديدا وبصوت يئن من الوجع قالت:

أنا لست وضيعة أو عاهرة أنا زوجة يا أمي ولست بالتة تنساب ألوانها بين فرشاته على لوحة في حياته، كيف لى أن أتجرد من مشاعرى ونزواتى العفيفة؟ كيف أصبح جسد بلا روح أمام حبى له والذي لا أعرف متى عرف طريقه إلى قلبى، ليتنى ما أحببته لكان أهون على نفسى أن أتجرد وأصبح دمية يصنع بها ما يشاء، وها قد أصبحت سجينة له فلم أعرف سواه ولم يدق باب مشاعرى غيره.

لن أقبل بهذا الجنون في مشاعره. . أنا أشعر معه بالخوف رغم تعلقى به فهو مجنون مخبول يكلم الطير ويحكى للجدران.

فكثيرا ما أجده يجلس صامتا بالساعات دون نوم ثم أجده منتفضا ممسكا بفرشاته متحدثا إليها، أشعر أنه مسحور أو مجذوب وهو يطفئ سجائره في قلب لوحاته ويستمتع بحريقها والدخان المتصاعد منها، وبعدها يدور في الحجرة سعيدا منتشيا لا يا أمي لن أدع آدم يرسم جسدى!!

أنا ملكة قادنى الحب إلى الهزيمة ولم أكن أعرف أن سهام العشق سامة بالخضوع ولن أخضع لأهوائه.

فقالت ثريا : ربما يا شمس هو مسحور أنا أشك في زوجة أبيه بثينة فهى تكرهه بشدة وكان الغيظ يملأ قلبها يوم زفافكما.

ضحكت شمس ضحكا صاخبا وقالت باستغراب : مسحور!! من الأفضل لى الصمت، فاندهشت ثريا وقالت : لما الضحك والصمت؟

فواصلت شمس في إطلاق ضحكاتها الصاخبة وقالت :

هذا شيئ عجيب ربما ولمَ لا إذن ما الحل يا أمى؟

فأجابتها ثريا بسرعة : نذهب إلى الشيخ رمضان فالكل يشهد بأنه رجل كريم وسوف يدلنا على الخير تعالى معى يا ابنتى نذهب إليه في الغد ونسأله ربما يكون لديه الحل!!

مطت شمس شفتيها وقالت : لن أذهب إلى شيخ رمضان ولا شيخ شعبان، اتركينى وأمرى يا أمي يكفينى ما أصابنى من تلك الزيجة،

يكفينى رضوخ لمشاعرى واستسلام طاعة لك . . . فلتذهبى أنت وحدك . . . أما أنا فلن أذهب معك إلى أى مكان يا أمي .

إن اندهاشك يا أمي من ضحكاتى الصاخبة أبكى روحى بالصمت بل سأذهب إلى مرآتي أتأمل جسدى الذي أكرهه وأراه أقبح جسد خلق لامرأة .

أنا قبيحة يا أمي أليس كذلك ، قبيحة جدا وكنت تخدعينى عندما أخبرتينى أن من أسباب اختيارك لأسمى يوم ميلادى هو وهج وجهى الشديد بحمرة خدى ! !

لماذا كذبت على؟وأوهمتينى بجمال لا وجود له ، أنا قبيحة لدرجة عالية وأرى جسدى قذرا بانتظار مجيئه نحوى كل ليلة . وانهمرت الدموع على خد شمس غزيرة وفاضت كأنها بركان ثائر ثم صرخت في ثريا : اتركينى يا أمي فأنا أعانى في كل لحظة أسمع فيها الجارات يهمهمن عن علاقتى بآدم وكيف أنعم بسعادة ، وأتالم حين تسألنى الصديقات عن مشاعره معى وكيف . . . . أنا مريضة يا أمي ومرضى لا شفاء له .

نفسى عليلة سلب منها الهوى فلا صح جسدى ولا ارتوى .

ووجدت ثريا نفسها عاجزة أمام مشاعر ابنتها المضطربة، لا تعرف كيف تداوى جرحها؟ولا بماذا تجيب على تساؤلاتها، ليتها تجيد بتر العضو المريض الذي أصاب البيت بالحزن.

فضمتها تهون عليها وتقدم لها الوعود بأن كل شيىء سيتغير وسيتحول الحال إلى الأفضل وسيكون حالها على ما يرام في الأيام المقبلة.

فهدأت شمس قليلا ثم تركت ثريا واتجهت إلى دورة المياه تغسل وجهها وتنثر على رأسها الماء وتطيب روحها بيدها.

بعد ذلك ذهبت إلى حجرة أخيها يوسف، الذي كان مشغولا بالرسم مقلدا آدم.

فجلست إلى جواره وأمسكت بيده وقالت له أنت رجل هذا البيت يا يوسف، وسوف أنتظرك حتى تكبر لتكون لى السند، فضحك يوسف وقال : أنا صغير جدا يا شمس ستنتظرين أعوامًا كثيرة.

فضحكت شمس وقالت : ولكنك ستكون رجلاً صادقًا لا تخدع النساء أعدك بذلك، هيا بنا لكى أذاكر معك بعض الدروس وستجد شرحى لدروسك أفضل بكثير من آدم، هل تعلم لقد كنت متفوقة جدا دراسيا ولكن وفاة والدنا حالت دون إكمال تعليمى الجامعى فربما

كنت تجدنى أفضل من آدم طبيبة أو مدرسة أو مهندسة ولكن أملى فيك أن تكون السند.

لم يفهم يوسف الكثير من كلام شمس، ولكنه بدت عليه الفرحة لوجودها إلى جواره.

حينئذ كانت ثريا بغرفة نومها وحدها تستند بظهرها على وسادة سريرها تنظر إلى صورة زوجها على الحائط، تكلمه وتبكى تمسح دموعها واللوم والحسرة تمزق روحها وتأنيب الضمير يفتك بها، وبينما هى في تلك الحالة المرثية رن جرس الهاتف وكان المتصل أحد العازفين واسمه محمود فسمعتها شمس تقول له لا تنس يا محمود أن تخبر درويش الطبال أن يستعد جيدا وتدربوا كذا مرة على الأغانى التي أخبرتك بها، فمنذ مدة طويلة لم يطلبنى أحد لحفل زفاف أو خطوبة على ما يبدو أننى كبرت فلولا عمل زوج ابنتى آدم على التاكسى ما دخل بيتى جنيه واحد منذ ٤ أشهر، وربما كان الموت من الجوع مصيرى أنا وأولادى.

وهنا خفق قلب شمس وشعرت بالوجع وعلمت لماذ تتحمل أمها طباع آدم وصبرها عليه في أمر عزوفه عنها، فأسرعت إلى أمها تقبل يدها وتقول لها، أعلم انك تتألمين لأجلى وأنك برحابة صدر وبنية صافية توقعت أن زواجى من آدم سيجلب لنا العيشة المستقرة ولكن ها

هو آدم يمتلك كل شيء وصارت مقاليدنا بأمره، لمعت عين ثريا وضمت شمس بقوة وبكت هى الأخرى دون أن يلفظ لسانها بكلمة .

فى تلك الليلة كانت السماء ملبدة ببعض الغيوم والشوارع هادئة خالية من المارة ،

فقرر آدم أن يرجع إلى البيت مبكرا فلا جدوى من السهر بالتاكسى طلبا للرزق في ليالى الشتاء .

ودخل آدم إلى حجرته ثملا وكانت المرة الأولى التي تراه فيها شمس مخمورا بعد مضى عام على زواجهما، كانت علامات الهذيان تبدو عليه فلا هو واع لتصرفاته ولا في غفلة، فأغلق آدم باب الحجرة بقوة ونظر إليها متوعدا وبكلمات متقطعة على لسانه ومشيرا إليها أن لا مفر اليوم من رسمها عارية صارخا فيها : لن أتركك اليوم يا شمس دون أن أرسمك، وسأرسمك عارية يا شمس، لن تقاومى تلك المرة هل سمعت لن تقاومى تلك المرة مشاعرى .

و بهدوء يحمل في طياته حممًا بركانية من الغضب قالت له ساخرة : مشاعرك! حقا رائعة مشاعرك كماء البحر . . . مالحة، هل صدقت كذبك لا لا . . . لن ترسمنى عارية أنا زوجتك يا حقير كيف تستبيح جسدى ليراه الجميع في لوحة، كيف تسمح لنفسك أن أكون سلعة تباع وتشترى؟ أنت أحقر أنسان بالوجود ولولا حاجة أمي لك ما استمرت تلك الزيجة أكثر من أسبوع، أنت مجنون مهووس بالألوان

والرسم وبلوحاتك وفرشاتك، أنا اللون الأبيض يا آدم فلن تتمكن من تدنيس بكارتى بألوانك الممزوجة بعهر يسكن عقلك.

كانت الكلمات سريعة على لسان شمس، استيقظ عقل آدم قليلا وهو يسمع شمس تبوح عما بصدرها وتعلن هجومها عليه وتنهش فيه كقطة شرسة غاضبة.

فنزل آدم بركبتيه على الأرض راكعا تحت أقدام شمس وبكى مثل الأطفال، وألقى بالألوان جانبا وقال بصوت مرتعش : أنا أحبك يا شمس أنا بالفعل أحببتك وأحببت براءتك وطفولة مشاعرك منذ اللحظة الأولى التي رأيتك فيها عندما جئت لأقيم معكم بالمنزل، منذ أكرمتنى أمك واعتبرتنى فردًا من أسرتكم، كنت أراقب هذا الهدوء في روحك وعزة نفسك، أنا أحببت تلك البراءة والصدق ولا أحب أن أدنسها باقتراب جسدى منك أنت لوحة رائعة الجمال ترسمها الألوان لا يليق بجسدك أن تنهشه قبلاتى، أنا أحافظ عليك من ثورة جسدى الهائج حين يراكِ، لن أسمح أن أدهس رقتك ببعض من وحشية الحب بالفراش.

اندهشت شمس من تفكير آدم، كانت تحسب أنه يعرض عنها ولا يحبها أو ربما على علاقة بامرأة أخرى وأحيانا كثيرة كانت تظنه مجنونًا أو ربما مريضًا جنسيا ولا أمل في شفائه.

أشفقت شمس عليه واقتربت منه ثم أخبرته بكلمات خرجت مترددة على لسانها : وأنا أحبك يا آدم، فلم تعرف مشاعرى غيرك، ولكن انصرافك عنى وتجاهلك لوجودى أرهقنى مما جعل الشكوك تملأ رأسى واعتقدت لبعض الأوقات أنك تخوننى مع صديقتك التي لا أعلم اسمها إلى الآن، فجاوبها سريعا ضاحكا : اسمها ملك، وهى صديقتى لا أكثر . . . .

صمتت شمس للحظة ثم قالت : ولكن رغم كل تلك المشاعرالحلوة منك لن أسمح لك أن ترسمنى عارية .

احمرت عين آدم ونفخ في الهواء وأطلق زفيرا كافيا لتعكير الكون وصرخ فيها : بغضب لما لا . . لماذا ترفضين؟ ماهى العفة بالنسبة لك؟ أجيبى من فضلك يا سيدة العفاف؟ وبغضب مشتعل أشعل سيجارة وأخذ ينفث فيها قائلا :

أنت مثل كل نساء الكون جارية حقيرة لا يشغلك سوى الجسد، تلك السلعة التي يشتريها الرجل بورقة زواج، أعلم أن كلامى لن تفهميه فأمثالك من الجاهلات لن يفهمن ما أتحدث عنه، يبدو أننى أخطات خطأ كبيرا بزواجى منك .

كانت الدموع تذرف على خد شمس كالفيضان لا تعلم بماذا ترد عليه، فلم تسعفها الكلمات من شدة صدمتها فيه وتحول مشاعره واتهامه لها بالجاهلة .

وبخنوع بدا في صوتها قالت والحسرة تملؤ قلبها : سأخبرك بكل صدق، أنت أسوأ من هذا الدخان المتصاعد من غليونك لتحرق الكون بأفكارك العبثية عن الحرية وأنت سجين . أنت سجين يا آدم داخل كراهيتك للحب .

إذن يا سيدى، أو كما تتخيل ذاتك، أنا جاريتك ملك يمينك فلتكن معلمى وأنا تلميذتك ولتأخذ بيدى لأدخل في محراب ثقافتك .

وهنا ألقى آدم بجسده على الأرض ونظر إلى أعلى بالسقف وأطلق ضحكاته التي كانت تكسوها السخرية والاستهزاء منها وقال :

ماذا تطلبين؟؟ أ تطلبين منى أن أعلمك!!

أعلمك ماذا؟! كيف تأكلين! وتشربين! هل تعتقدين أن جمال جسدك كفيل أن يجعل منك إنسانه أنت أفروديت يا شمس . . . مجرد جسد مكتمل الأنوثة، أنت لوحة لطيفة لا أكثر، وقريبا ستنهمر ألوانى سيلا جارفًا على لوحة جسدك وأرسم عبثى نغمات صاخبة وأرقص بالفرشاة فوق تلالك، ثم اقترب من جسدها فانتفضت شمس خائفة من نزواته الجامحة لا تعرف بماذا يفكر وماذا سيفعل؟فخلع عنها ثيابها ولعق بشفاهه حباتها ثم هب واقفا مشيرا بيده نحو صدرها قائلا :

لا يمكن أن تتحول تلك اللوحة إلى روح إنسان

أنا أخجل منك حين تتكلمين ببدائية فلسانك أشبه بضفدع الحقل فلا أجد في صوتك أى رغبة لسماعك أو الكلام معك، ثم ما هذه الثياب التي ترتدينها فتبدين فيها كالأراجوز، وأسرع ناحية دولابها وأخرج منه بنطلونًا بنيًا وبكل عزمه ألقاه بعيدا وصاح فيها : ما تلك الألوان؟ قميص أخضر طرحة للشعر صفراء ما هذا المزج العفن؟ ثم ما هذا الغطاء التي تلفينه حول عنقك؟ فتبدو رأسك كالمحكوم عليها بالإعدام شنقا.

صغيرتى أنا لا أستطيع أن أدعوك لقضاء أمسية مع أصدقائى بتلك الأفكار العفنة التي تسيطر على رأسك، أنا أخجل من زواجى بك ومن هذا الزقاق الذي أسكن فيه، وأخجل من تلك الدنيا فأعيش عالمى الخاص الذي صنعته بألوانى، تحررى يا شمس من تلك القيود البالية ودعى شعرك يتطاير مع نسمات البحر.

ثم مد يده نحو صدرها وقام بتغطيته وقال :

هذا الجسد خلق عاريا ونحن نكسوه بالخوف من الوقوع بالرذيلة، فلتكن عفتك فكرة، فلن يملك جسدك إلا إفكارك عنه، وهذا الثوب الذي ألقيته على صدرك ليس دليلا على طهارتك.

تأملت شمس كلام آدم وأصابها الذهول وردت عليه بهدوء قائلة :

حتى غطاء رأسى ترفضه يا آدم!! لماذا إذن تزوجتنى وأنت ترانى عاراً على حياتك، أتحسبنى حشرة لزجة صعب التخلص منها!!

فضحك ثم ضحك بهستيرية واضحة، وقال : أجل أجل، أعلم أن منظورك للعفة مرهون بهذا الغطاء البالى، فعقلك لم يدرك من كلامى سوى حديثى عن غطاء رأسك.

فصرخت فيه شمس : ولكنك.. لم تقترب منى لتعلم أن كانت عفتى بهذا الغطاء أم بجسدى؟

وكأنك سراب يا آدم كلما اقتربت منك زاد بعدك عنى، أنت مجنون... مجنون.

وهنا رد عليها متعجبا : حقا أنا كذلك، فلتعتبرينى مجنونًا يا شمس، فأنا أعلم جيدا أن روحى عبثية أتت من عالم آخر فلا قيد لها، ومادام عقلك يرهن حبى لك بممارسة العشق بالفراش فلتعلمى جيدا أننى لن أقترب من هذا الجسد مطلقا!!

جمالك يا أفردويت مقدس لن يمسسه بشر، أنت الإلهة التي تعبدها فرشاتى وتسجد طواعية لانحرافات جسدك أيتها الجميلة...

فصاحت فيه : أنا لست عاهرة.

فضحك وأخذ شهيقا طويلا ورد عليها : أعلم جيدا أنك لست عاهرة،

وضمها لصدره . . ليتك فاجرة فما أيسر حب اللعين للعاهرة، قلبى يفيض ونور حبك طهر أفضى جواهره!!!

ثم مشط آدم بسرعة شعره البنى، وارتدى قميصه الأزرق على عجل ودون أن يقفل أزراره انصرف عنها مسرعا وتركها وهى في حالة من الذهول الذي يصاحبه بكاء المخذول.

خرج آدم إلى الشارع شاردا كعادته، وانخرطت شمس في البكاء بهستيرية واضحة وسمعت نحيبها ثريا فهرولت إليها وضمتها إلى صدرها وهى تسب وتلعن اليوم الذي جاءت فيه بهذا الشيطان الخبيث إلى بيتها.

كانت يد شمس ترتجف بشدة وكذلك جميع أطرافها، وبدت شفتاها مرتعشة بيضاء بعد أن انسحبت الدماء من عروقها وتسللت البرودة إلى جسدها، وبالرغم من محاولات ثريا الشديدة لتدفئة جسد ابنتها إلا أن شمس كانت تترنح بين يدى ثريا مثل قطعة قماش مهلهلة والدموع تتساقط بلا توقف، وفجأة سقطت شمس على الأرض مغشيا عليها فصرخت ثريا : ابنتى . . . ابنتى . . يا شمس يا شمس، وتعالت صرخات ثريا فسمعها الجيران وجرى يوسف إلى جارتهم لبنى التي تسكن بالبيت المجاور يدق عليها الباب وينايديها متعجلا فذهبت معه على الفور، وبمجرد دخولها إلى الحجرة التي ترقد فيها شمس على الأرض أسرعت تدلك بيدها صدر شمس الذي بدى متوقفا،

وأخذت تنثر الماء على وجهها وعندما فشلت كل المحاولات أسرعت نحو المطبخ وأتت بحبة من البصل وشقتها بالسكين نصفين، وبالقرب من أنف شمس مررتها كثيرا لعل شمس تفيق ولكن دون جدوى.

كانت ثريا في ذلك الحين تولول وهي في حالة هياج تام، فلا تعي لتصرفاتها أو لكلامها وهرول إليهم الجيران وكل من سمع صراخ ثريا وحملوا بأيديهم شمس ونزلوا بها إلى الشارع وهي في حالة من فقدان الوعي التام، ووصلوا بها إلى باب المستوصف القريب من الزقاق فاستقبلهم العاملون بعربة ذات إطارات كبيرة وضعوا عليها شمس.

كانت العربة مدفوعة بأيديهم عبر ممرات ضيقة ذات ضوء خافت بينما كانت ثريا تلطم خديها وهي تهرول خلف العربة وتصرخ : ابنتي ابنتي لن أسامحك يا آدم، آه يا فلذة كبدي لقد أنطفئ نور شمس بسببك، لن أسامحك وسأنتقم لابنتي، لن تموتي يا شمس ولن أسامح نفسي على هذا الخطأ الذي أرتكبته بحقك يا ابنتي، فحاول البعض أن يهدئ من روعها ثم طلبت منها جارتها لبنى أن تسكت قليلا عندما استقرت العربة داخل حجرة تنبعث منها رائحة البنج والأدوية يجلس بها طبيب شاب في بداية حياته العملية، فنهض مسرعا ناحيتهم مشيرا إلى لبنى أن تجعل ثريا تصمت قليلا.

كانت لبنى امراة عاقلة بعيدة عن الاختلاط بالأخرين، تخرج كل صباح ولا تعود إلا بعد غروب الشمس حيث تعمل خادمة.

وبصوت منخفض همست لبنى بأذن ثريا قائلة لها :

فلنطمئن على ابنتنا شمس أولا . . فلا مجال للكلام في تلك المشاكل في الوقت الحالى يا ثريا ، ونظرت إليها بعطف وقالت : اتركى الأمر برمته على الله وتوكلى عليه . .

فانسابت دموع ثريا ورفعت يدها إلى السماء وقالت : يارب يارب كن بجانب ابنتى هى كل ما أملك .

وتنهدت طويلا ودعت يارب .

فنظر نحوها الطبيب مشفقا عليها وقال : اطمئنى على ابنتك ستكون بخير ، لقد انخفض ضغطها شديدا فهو ٤٠ على ٧٠ ولكنها تحتاج بعض المحاليل والجلوكوز كى تسترد عافيتها ، وحتى ذلك الوقت الذي ينضبط فيه ضغطها ويعود للمعدل الطبيعى لا بد من الالتزام بالهدوء التام ، أرجوكِ من أجل سرعة شفاء ابنتك لابد من الهدوء .

فهدأت نفس ثريا قليلا وهزت رأسها غير مدركة لكلام الطبيب ، فهى لا تعرف ما هو الضغط المناسب ولا تعلم خطورة ماحدث لابنتها ولكن ما كان يحركها هى مشاعر الأمومة تجاه ابنتها ، فمسحت بيدها على شعر شمس الذهبى ولمست بأصابعها وجهها الشاحب بعد ما كان متوهجا ، وأمسكت بيدها وضمتها إلى صدرها وأخذت تقبل فيها

حتى استأذنتها الممرضة أن تترك يدها لكى تقوم بوظيفتها وتستطيع أن تضع الكالونة الخاصة بالمحلول في عروق شمس وبدون ألم.

فسمعت ثريا الكلام دون جدال ونقاش، وجلست على الأرض تفرك بأصابعها وتمسح العرق المتصبب على جبينها وهى تنظر بين الحين والآخر إلى عيون ابنتها المغلقة وإلى الساعة الموجودة على الحائط وعقاربها التي تتحرك ببطء مثل بطء تلك الليلة العصيبة، راجية من الله أن يعيد إلى شمس وعيها وتسترد عافيتها.

ومرت ساعات الليل ثقيلة بعبء الوحدة القاسية في دنيا ثريا التي خذلتها عندما بحثت عن الفرحة.

ساعات كانت ثريا تتابع فيها خفقات قلب ابنتها صعودا وهبوطا حتى تهدأ قليلا وتطمئن أن الروح مازالت بها وأنها تنبض بالحياة، وبعد مرور ساعات طويلة ومع بزوغ الشمس بدأت شمس تحرك جفن عينيها فأسرعت ثريا نحوها والحسرة تسيطر عليها برؤيتها ذبول ابنتها والتي بدت أكبر من عمرها بسنوات كثيرة، نظرت إلى وميض عينيها الخافت وحالة الأعياء الشديدة التي أصابت جسدها وبصرها الشاخص في الحائط أمامها، حاولت ثريا أن تتكلم إليها ولكن ظلت الكلمات حبيسة في حلق شمس حتى تلك اللحظة من مساء اليوم التالى التي جاء فيها آدم كى يطمئن عليها، عندما علم من الجيران بمرضها، وفى تلك اللحظة انفجرت شمس بالبكاء وصاحت تطلب

منه أن يبتعد عن حياتها ويتركها لحالها، وتعالت صرخاتها : أخرج يا حقير . . أخرج يا حقير .

وانتفض جسد ثريا حين رأت ابنتها في حالة هستيرية من البكاء والصراخ، وأخذت تلكم آدم بيدها في صدره وتدفعه للوارء كى يخرج من الحجرة ولا يعود لحياتهم مرة أخرى .

وخرج آدم مهرولا منكبا على وجهه . .

لا يعلم إلى أين يذهب وانطلق يجرى وظل يجرى ويجرى حتى وصل إلى شاطئ البحر، فنظر إلى أمواج البحر المتلاطم كموجات حياته التي لا تعرف الهدوء، وألقى بجسده على الرمال البيضاء بعد أن أنهكه الجرى لساعات طويلة .

وظل على هذه الحال صامتا متأملا النجمات وهى تتلألأ في صفحة السماء تارة، شاردا في موجات البحر وهى تضرب برمال الشاطىء تارة أخرى حتى غلبه النعاس، وعلى صوت العاملين بالشاطئ وهم يستعدون لوضع الشماسى والكراسى الخاصة بالمصطافين، استيقظ آدم وأخذ يفرك عينيه فباغتته الشمس بأشعتها المصوبة في وجهه، فأغلق عينيه سريعا ثم وقف متململا مضطربا يفكر إلى أين سيمضى؟؟وماذا سيفعل؟

وادار برأسه حوله فرأى أفواجا من المصطافين قادمة إلى الشاطئ هذا يضحك وأطفال تمرح ووحده يعيش كموجة شاردة لا تجد لها مرسى، وحده من يشكي الدنيا ويقاسى منها الفراق. . . وحده يركلها ويلعب بأيامه كطفل يلعب بعود ثقاب فلا يبالى بمن سيحترق.

فنفض عن ملابسه الرمال. .

وظل يمشى لساعات حتى قادته أقدامه إلى ورشة الدكتور سليم، وما أن وطأت أقدامه المكان حتى أصابت الصدمة جميع من في الورشة الذين يشاركونه العمل، وذلك عند رؤيتهم له بملابس رثه شاحبا منكوش الشعر وعلى غير العادة.

فنظر آدم فيهم وفى العيون الذي تتدفق في مظهره ففر هاربا منهم خارج المرسم، فلحق به أمير مسرعا مناديا عليه : انتظر يا آدم ماذا بك يا آدم. . . آدم.

فتريث آدم قليلا منتظرا إياه ومشيا سويا دون أن يفكر أحدهما أن يقطع حالة الصمت بينهما ويبدأ بالكلام.

فلم يحاول أمير أن يعرف ما سبب انزعاج آدم وسبب هذا المظهر الرث الذي بدا عليه، بل قضى يومه معه متجولا داخل أحد المولات الكبيرة يتكلمان في أمور الحياة البسيطة ومستقبلهما، كانت أقصى أحلام أمير هو الالتحاق بعمل وظيفى بأحد المراكز الثقافية ليكون له دخل ثابت

بعيدا عن العمل الحر والدخل المادى غير المضمون والـزواج التقليـدى بمن يحبها، بينما كانت أحلام آدم تفوق الحـدود، فهـو يحلـم بالشـهرة والسفر والعالمية.

وبعد مضى ساعات طويلة وعند غروب الشمس ادعى آدم أنه سـيعود لبيته، فسأله أمير: أين بيتك، أنا صديق لك منذ خمسة أعوام أو أكثـر ولا أعلم أين تسكن حتى الآن؟

فأجابه شاردا مبتسما ساخرا: أسكن في البحر يـا صـديقى لا عليـك بسكنى وحياتى، أنا آدم... آدم فقط هل سمعت.

تعجب أمير وقال ضاحكا: كما تحب يا آدم وفقط.

وانصرف عنه آدم يبحث عن مكان يسكن فيه، حتى توصـل إلى أحـد السماسرة واستأجر غرفة صغيرة بالـدور الأرضـى بمكـان قريـب مـن البحر بمنطقة سبورتنج.

ولأول مرة يمسك آدم بمفتاح خاص بـه، تأمـل المفتـاح قلـيلا وابتسـم وأداره ثم دخل إلى تلك الجدران الجديدة وما ستحمله معها من قصص عارية بلا رتوش أو الوان.

وخلع آدم ملابسه الرثة ودخل إلى الحمـام ووقـف تحـت صـنبور المـاء المنهمر على جسده ليزيح آلامـه وأحزانـه ومكـث تحـت المـاء طـويلا مغمض العينين لا يشعر إلا بضربات رذاذ الماء على جسـده، لا يعلـم

كم لبث من الوقت تحت الماء، ولكنها تسللت إلى خلاياه فبثت بروحه الحياة وخلقت بجسده اليابس براعم من القوة، وأغلق صنبور الماء كمن طوى كتابًا صفحاته مبهمة، وذهب إلى الفراش والذي كان عبارة عن أريكة خشبية مغطاه بالصوف، ومثل وليد لا يعرف الخوف ولا الضعف قرر أن يسطر صفحات حياته كما يحلو له، ومع صباح اليوم التالى أمسك بالقميص الجديد الذي كان قد اشتراه مع أمير ونظر بالمرآة مزهوا بنفسه واكتملت أناقته عندما رش بملابسه عطره الفرنسى الذي اعتاد على شرائه.

كان آدم لا يقبل بأن يكون صاحب مظهربسيط متواضعا، فهو يدعى دوما الثراء، وعندما كان يسأله البعض عن سبب عدم امتلاكه لسيارة خاصة فكان يسخر من السؤال بكل كبرياء، مدعيا أنه يحاول أن يبدو بسيطا بمشاركة الفقراء مواصلاتهم وحياتهم.

كان آدم شديد التناقض ولديه نفس شديدة الضراوة لا تقبل بالهزيمة، نفس تصيب كل من يقترب منها بلهيب من النار.

وذهب آدم إلى العمل بورشة الدكتور سليم، وهناك اقتربت منه ملك وسألته ماذا حدث لك بالأمس يا آدم؟ فأجابها متجاهلا النظر إليها :

لا شيء لا شيء.

فعاودته بسؤال آخر : لماذا لا تتكلم عن نفسك؟ نحن لا نعرفك يا آدم لماذا أنت بعيد؟ فمنذ كنت زميلاً لنا بالجامعة وحياتك غامضة بالنسبة . . . وهنا ضحك أمير وترك النافذة الخشبية التي يحفر عليها برسوم هندسية جانبا واقترب من آدم وهو مستاء قائلا : الرجل الغامض مثلا! لا أعلم ما سبب انبهار الفتيات بك يا آدم والتفافهن حولك وكأنك الصديق يوسف .

فانزعجت ملك من حديث أمير ، وقالت لا ليس الصديق يوسف في جماله ، ولكن ربما لأنه يحترم عقولنا يا كازانوفا ونحن بالنسبة له زميلات لا أكثر ، فلا نخشى منه ، كلنا يعرف مدى خلق آدم الدمث ولكن أمثالك من الثعالب يجب علينا اجتنابه خشية على قلوبنا ، ومن طعناتك التي لا تعد ولا تحصى ، وأمسكت ملك فرشاتها التي كانت تدسها بشعرها ووجهتها في وجه أمير قائلة :

إن عدد أرقام تليفونات الفتيات بهاتفك تجاوز عدد شعر رأسك ، كيف نثق بك يا شهريار .

فأطلق أمير ضحكة عالية وقال ساخرا : إذن أنا شهريار ! ! وهذا الطاهر آدم القديس الذي لم يذق طعم الخمر هل تعلمين؟ لقد أسقيته منذ أسبوع قدرا من الخمر كافيًا لذهاب عقله بلا رجعة ، وربما هذا القديس ارتكب حماقة تجعله في صفوف الحمقى أمثالى .

وبسخرية واضحة وجه كلامه إلى آدم :

أليس كذلك أيها القديس؟

ارتبك آدم عندما أفصح أمير عن شربه للخمر، وانزعج قائلا: أشيطان أنت يا أمير . . . أنت شيطان!!

لم تتوقع ملك كلام أمير، وانقطع حوارهما فجأة عندما دخلت ربا عليهم بالمرسم تدق بنعل حذائها العاجي والمدبب على الأرض فتنخلع القلوب مع خطواتها المتراقصة على نغمات خلخال فضى، وتأسر بجمالها اللبنانى كل العيون وبشعرها الأحمر الغجرى على كتفيها تتأرجح النفس في هواها ويفوح شذى عطرها الذي عبق المكان، فامتلكت حواس الجميع ببرهة قصيرة وبعد ثوان معدودة أسرع أمير نحوها يسألها : هل ستعملين معنا بمرسم الدكتور سليم؟ أجابته ربا بلكنة لبنانية : شو بدك أعمل معكم أم لا؟فأجابها بابتسامة ثعلب ينتهز الفرصة ليلتهم فريستة : معنا بالتأكيد، ما رأيك في جولة معى داخل المرسم لتتعرفى على طبيعة عملنا وتخصص كل فرد في المكان، فأنا مثلا أحفر على الخشب، فاقتربت منهما ملك وقالت :

ترو قليلا يا أمير، ونظرت ناحية ربا بغيرة واضحة على ملامح وجهها وقالت : لم نعرف اسمك بعد يا . . . . ؟ فقطعت ربا كلامها وأجابتها باستعلاء بدى في صوتها ودون النظر إلى وجه ملك

اسمى ربا، وابنة الدكتور سليم، وجئت من إيطاليا هذا الأسبوع بعد أن درست الفن هناك، وبأبتسامة ساخرة تركتهما دون التفات

لوجودهما تتجول داخل قاعات المرسم غير مبالية بنظرات الدهشة المرسومة على الوجوه.

فأخذت ملك تنظر إلى أمير والدهشة تسيطر عليها من صدمة الرد وأسلوبها المتعالى والمتعجرف، بينما وقعت الكلمات كالصاعقة على أذن أمير، وارتبك قليلا ،

فابتسمت ملك وسألته : فشلت بالإيقاع بها أليس كذلك؟ فأدار أمير رأسه عنها وبعقله تدور عشرات من الأفكار، فلا يمكن له أن يمارس تلك الطقوس التي اعتاد عليها للإيقاع بالفتيات، فعند عمل مقارنة بسيطة بينه وبين فتاة مثل ربا وهى ابنة الدكتور سليم صاحب أكبر شركات الديكور للقرى السياحية والفنادق وهو . أميرمازال الفنان المبتدئ الذى لا يملك في الدنيا غير فرشاته وابن لرجل بسيط يعمل موظفًا بأحدى قصور الثقافة.

حتى كلامه المعسول والذي يفيض بعبارات الغزل والمدح لا فائدة منه مع فتاة تتمتع بجمال وجاذبية طاغية مثل ربا، فالبتأكيد هى تسمع من عبارات الغزل الكثير، إنما تتواجد بمكان أنها ليست بالساذجة التي تفرح بالكلام المعسول ولا تشتهيه بحكم انفتاح تربيتها ومعيشتها وحدها بإيطاليا من أجل الدراسة.

والتزم أمير السكوت غير مفصح عما بداخله، ولكن هناك عطب ما أصاب نفسه واستفزه بسبب تعاليها الواضح عليه في نبرة صوتها أثناء الكلام.

وقامت ربا بجولتها بالمرسم سريعا، كانت تتفقد الرسوم واللوحات والأشغال الخشبية والمعدنية في كل قسم ولم تحاول أن تتكلم مع أحد من الرسامين الموجودين، بل كانت عباراتها مقتضبة حتى عندما حاول البعض الترحيب بها كانت لا تبالى بكلماتهم وانصرفت عنهم دون سلام.

وبمجرد رحيلها تنفست ملك وأخذت شهيقا طويلا وأخرجت زفيرا يحمل ضيقًا كبيرًا فسألها أمير : لماذا كل هذا الضيق يا فنانة؟

وعلى الفور قالت بصوت عال : ما هذة الفتاة المغرورة؟!! أصابتنى بالغثيان يا إلهى!!

فضحك أمير وقال : أهى غيرة النساء يا ملك أليس كذلك؟

فلم تهتم ملك لعبارته وتعمدت أن تبدو واثقة من نفسها فاستدار أمير ناحية آدم وسأله : ما رأيك أيها الرجل الغامض، هل هى بالفعل مغرورة؟ فأجابه : نعم مغرورة جدا.

فرد أمير : إن لم تغر ربا بجمالها ومالها فمن يكون مغرور إذن، ونظر ناحيه ملك وسألها : أنت. . . . مثلا؟ هل تعتقدين أنك بهذا الشعر

القصير الصبياني وسروالك الممزوج بألوان نقاش الزيت أم بهذا القميص الذي أظن أنك قمت بشرائه من قسم الرجال ستصبحي . . . فقاطعته ملك : ماذا؟وبغيظ وقبل أن يكمل كلامه كانت قد لكمته في كتفه وقذفته ببالتة ألوانها في وجهه فانسابت الألوان على أنفه واختلطت، فبدا كالمهرج في حلبة السيرك فأخذت ملك تضحك وتضحك بينما حاول أمير أن يسيطر على غضبه بألا يضربها واكتفى باتهامها بالغباء الشديد، وحماقة تصرفاتها قائلا : لولا أنك فتاة لكان مصيرك على الأرض بلكمة من يدى في وجهك .

فضحكت ملك قائلة : ها قد اعترفت أذن أننى فتاة رغما عنك!!

وبعيدا عن كل هذا الهراء . .

كان آدم مشغولا عنهم شاردا فلا يشغله ما الذى يدور حوله من صراعات بين ملك وأمير فلا أحد يعلم ما الذى يدور داخل عقله؟

ومرت شهور طويلة انقطعت فيها أخبار آدم عن شمس حتى هذا اليوم الذي جاء فيه أحد المحضرين بالمحكمة وطرق على باب بيت شمس حاملا معة ورقة طلاقها .

لم تنزعج شمس للخبر بقدر انزعاج ثريا، التي ظلت تبكى على حظ ابنتها التعس رغم أنها تحررت من سطوته وغرابة أطواره ولكن من الذي سيحرر آدم من عبودية اللون والجسد؟

ومرت الأيام سريعا كان آدم يحاول فيها جاهدا أن يصنع لنفسه بصمة فنية من خلال عمله في المرسم، فيأخذ ساعات إضافية لتعليم الطلبة عمل البورتيريه والرسم ثم بدأ يتودد إلى ربا شيئا فشيئا ليستحوذ على قلبها بكل ما أوتى من ذكاء اجتماعى ولباقة.

ورغم ما ملكته ربا من قدر كبير من التحرر الفكرى والمظهرى وبالرغم من ملابسها العارية وشعرها الغجرى وأساورها الفضية التي تحيط بمعصمها غير الخواتم المعدنية التي تملأ أصابع يدها وخطوات سيرها العشوائية فتجدها تجلس أينما تريد. . في الشارع على الرصيف أو فوق السيارة أو حتى على مقهى بلدى بأحد أحياء بحرى الشعبية، بالرغم من كل هذا وذاك إلا ان آدم كان مشغولا بها، فانجذب إليها واستطاع أن يجذبها نحوه بعدم لهثه للكلام معها كما يفعل البعض، أو ربما مظهره المبالغ فيه وشدة أناقته جذبها ناحيته حتى كادت أن تحسبه من الأثرياء، ولكنه ولأول مرة يفصح عن ظروفة المادية أثناء تناوله الغداء معها، فلم تندهش ربا عندما أخبرها بأنه من الفقراء، فلم تهتم ربا بالأمر فتلك أمور لا تعنيها، ولكن كل ما كان يعنيها وما كان السبب وراء انجذابها نحوه هو اللون عنده وخطوطه شديدة التميز في رسم اللوحات.

وفى مساء يوم خريفى قضته ربا مع آدم بين المشى بشوارع محطة الرمل والأكل من على عربة للكشرى بالمنشية، وفى نهاية اليوم صاحت ربا

وهى تقود سيارتها عندما رأت البطاطا الساخنة، فالتهمت الكثير منها على كوبرى إستانلى، وياله من أمر شديد الإثارة بالنسبة لفتاة مرفهة في معيشتها، كان يتأملها آدم باسما فرحا كطفل وجد لعبته، وفجأة صاحت فيه.

لماذا لم تأخذنى إلى بيتك حتى الآن؟! أريد أن أرى لوحاتك.

فأمسكها آدم من يدها وجذبها نحو سيارتها من أمام عربة البطاطا، وقال لها : هيا في الحال وأعدك بعربة بطاطا كاملة، إلى المحراب سيدتى الجميلة.

فضحكت ربا وقالت : أعلم أننى جميلة ولكن . . ! ! ما هو المحراب؟

فأجابها : هو دار عبادتى، حيث أزهد الدنيا وأرى الجسد روحًا مقدسة

لم تفهم ربا كلماته ولكنها قالت : لا بأس سأفهم مقصدك فيما بعد . .

وانتقل مع ربا بسيارتها متجها إلى محرابه الصغير جدا، والذي بدا كمرسم كبير جدا، وهناك دخلت ربا تتجول بين اللوحات، فلا مكان لأسرة أو فراش إلا من أريكة خشبية مغطاة بفراء خروف بنى ومنضدة كبيرة من الخيرزان ودولاب معدنى مفتوح يحمل ملابس آدم بعناية فائقة.

فأخذت ربا تتجول بين اللوحات المنتشرة على الجدران وتتفحصها بعناية فائقة، حتى أنها لم تمهله أن يرحب بها أو يأخذها بنفسه بين لوحاته، بل كانت تبادره بطرح العديد من الأسئلة حول القصة وراء كل لوحة من اللوحات، والتي بدت فيها جميع النساء عاريات، وقد لفت نظرها انكسارالعيون وضآلة النفس وتشتت الوجوه واجتماع تلك الصفات بكل لوحة منفردة. فاقتربت ربا من آدم ودققت النظر في عينيه

وسألته : لمَ كل لوحاتك يسيطر عليها الحزن!!

فلم ينتبه آدم لسؤال ربا، فحينها كان مشغول بفكرة رسم ربا عارية وضمها إلى محراب عبادته، كانت تراوده الفكرة وتلح عليه بشدة ولكن ما السبيل؟ وكيف يخبرها برغبته في رسمها؟ فربما ترفض هذا العرض وتنهره، فكان لا يعلم مدى حرية تفكيرها، فحبس فكرته داخله ولم يتفوه بكلمة حتى انتهت ربا من رؤيتها لجميع لوحاته، ثم سألته : هل أنت جائع؟!. . . . يا آدم أنت لم تجب على أى سؤال من تساؤلاتى التي طرحتها عليك، ماذا أصابك؟

فضحك وقال جائع!!؟ بالتاكيد لا، بعد كل ما تناولته معك منذ الصباح، ولكن، وصمت قليلا ثم سألها، هل نتناول الغذاء سويا غدا؟

فرحبت ربا وأجابته سريعا : إذن أنتظرنى غدا في تمام الرابعة سأحضر إليك هنا بالحراب لنتناول الطعام سويا ، ولكن بمكان مقدس أخر .

وفى اليوم التالى كان آدم يقف أمام بيته يتظر مجىء ربا ، والتي جاءت في ميعادها بالضبط ، وبمجرد أن ركب السيارة بجوارها قالت : أنا جائعة جدا ، فأجابها ساخرا : وأنا أيضا جائع جدا ولكن كيف يا ربا بعد كل هذا الطعام بالأمس ! ! لم يرق إلى ربا تجاوزه بالاستهزاء بها فسألته :

إذن أين سنأكل؟

فأجابها :

ماك أو كنتاكى .

فسخرت ربا من كلامه وقالت : لا لا يا آدم تلك أما كن لا تليق بالمبدعين أمثالك . . هيا لا تهتم أين ستأكل سأصحبك اليوم إلى مكان مختلف ، وانطلقت ربا بسيارتها الحمراء خارج حدود الإسكندرية متجهة إلى أحد المطاعم الموجودة بطريق الساحل ، وهناك صعد آدم إلى الطابق العلوى للمطعم متأملا المكان ، والذي صمم على طراز إفريقى حتى العاملين يرتدون جلود الحيوانات وعلى صدورهم سلاسل ملونة من الخرز والأحجار الكبيرة ، كانت الموسيقى غريبة وكأنها صرخات نساء ودقات الطبول كأنها ساحة حرب ، الوجوه المحيطة بدت

ملامحها غريبة مثل كائنات فضائية هبطت من عالم مختلف على سطح الأرض، بمظهرهم المتحرر والكاشف عن أجساد نسائهم.

وبطريقة مبالغ فيها كانت كئوس النبيذ في أيدى الجميع وفى كل مكان، والرجال بدا مظهرهم كالمجاذيب بسراويلهم الواسعة وشعر رأسهم الكثيف والوشوم المتعددة المنقوشة على أكتافهم وصدورهم العارية، فالجميع شارد ويتأمل ذاته أواللاشيىء بعضهم يتكلم الإنجليزية بطلاقة والبعض الآخر ألفاظة اقل ما توصف به الهمجية، فالبذاءة بكل حرف منطوق كنوع من الحرية وانعدام السيطرة.

إنه مكان غريب كغرابة رواده من الرجال، أما بالنسبة للنساء فكانت الغرابة في ملابسهن وأجسادهن وحركاتهن، فعيونهن ملونة بالعدسات والصدور منفوخة بالسيلكون والوجوه ممتلئة بالفيللر، فلا تعرف إن كن حقيقيات أم تماثيل مصنوعة بحرفية فنان، لم ير آدم فيهن وجهًا حقيقيًا تأمل كل الوجوه ولم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال ربا، هل نحن بجمهورية مصر العربية أم سقطن في بقعة غريبة من الأرض؟ فضحكت ربا بخبث وأجابته بنظرة استعلاء أربكت آدم وحبست الكلام بحلقه حتى جاء الجرسون ناحيتهما مرتديا سروالاً قصيراً من الكتان الأصفر وصديريًا يبدو كجلد النمر، وعلى المنضدة التي اختارتها ربا في أحد الأركان البعيدة عن أنظار الجميع وبابتسامة وترحيب تدل على مدى معرفة الجرسون لربا وأنها من المرتادين

الدائمين للمكان، مد يده نحوها وأعطاها قائمة الطعام ووضع عصير ترحيب بالزوار، ابتسمت ربا ابتسامة هادئة ووضعت القائمة جانبا على المنضدة دون أن تحاول فتحها وقراءة ما فيها، بينما كان آدم يمسح بمنديله الورقى جبينه الذي تصبب بالعرق رغم برودة المكان من أثر هواء التكييف، وذلك عندما سقطت عيناه على أنواع الطعام الغريبة المكتوبة بالقائمة والتي لا يفقه عنها شيئًا، وزاد ارتباك آدم عندما باغتته ربا بسؤال دون النظر في عينيه : ماذا ستأكل يا آدم؟! فتلعثم آدم، فالمأكولات كثيرة ولكن لا يعرفها ولم يسمع عنها من قبل، فهو حتى لا يعرف تكوينها أو المنطوق الصحيح لاسمها، فكانت دهشته بالمكان تسيطر على ملامح وجهه، وكشفته ربا سريعا منذ اللحظة الأولى، وكأنها تعمدت إحراجه ووضعه في المكان المناسب لعلاقته بها، وبدت الحيرة على ملامح وجه آدم والخجل تملكه عندما وجد نفسه غير قادر على الرد عليها، فقالت له ربا : سأطلب لك مثلى، فأخذ آدم نفسا عميقا ورد عليها متلعثما : ذلك أفضل.

ربا نموذج مختلف عن باقى النساء اللاتى عرفهن، فلا هى متمسكة بالعادات والتقاليد ولا هى تسمح للرجال بالتجاوز معها في الكلام أو المواقف، تشرب السجائر بشراهة ومنقوش على أحد كتفيها باللغة الهيروغليفية عبارة " من سيقترب من جسدى سيحترق بلهيب عشقى، " ألوان ملابسها صارخة وصريحة، خمرية جسدها تلهب، وعند سيرها تدق رنات الخلخال الذي يحيط قدمها ما يؤثر القلوب،

وخاصة أن آدم يرى النساء جميعهن عاهرات وخلقن للغواية ومهما حصلت المرأة على درجات علمية أو وظيفية فهو يراها غانية لا أكثر ولا أقل وبدأ أدم يتأمل جسد ربا وفستانها القصير المنفوش والذي كشف عن معظم ساقيها، ولاحظت ربا تدقيق عين آدم فيها فضحكت بداخلها من مدى سذاجة تفكيره واحتقرته بداخلها فلم تبال به، بل ما كان يشغلها هو توليته المهام الخاصة بالمرسم وعمل كل اللوحات الخاصة بالفنادق والقرى السياحية وإنجازها في وقت قصير، خاصة بعد انشغال والدها الدكتور سليم بسفرياته إلى المعارض الدولية في الفترات الأخيرة.

وقدمت ربا عرض العمل بالمرسم صباحًا ومساءً شرط أن تكون كل الأعمال المرسومة بتوقيع والدها الدكتور سليم مقابل مبلغ مالى كبير، فوجىء آدم بالعرض ودارت برأسه القصص والحكايات عن سرقة الأعمال من صغار الفنانين ونسبها لكبار الفنانين، ولكنه لم يتردد بالموافقة، ورد سريعا : موافق جدا، ولكن بشرط مضاعفة المبلغ المالى.

آدم كان يعتقد أن بحصوله على قدر كبير من المال الذي يحقق له بعض الرفاهية ورغد العيش سيصير بعدها من كبار القوم من التشكليين، فمعظمهم لا يشغله السعى وراء لقمة العيش لما يتوفر لديهم من ثراء، أسرى بالأصل، إلا من بعض الفنانين الصغار مثله وهؤلاء لديهم من

الوساطة التي تسمح لهم بالالتحاق بالوظائف الحكومية دون الاهتمام بالبحث عن وظيفة أخرى والسعى وراءها .

آدم يعلم جيدا أنه لا يملك هذا ولا ذاك ، ولكنه يملك فرشاته التي لا تتجمل ، هو يعلم جيدا أن مكانه الحقيقى ليس من ضمن تلك الشريحة من البشر ، فلا توافق أسرى ولا مادى ولا اجتماعى ولولا أن ريشة ألوانه بارعة لما فكر أحد أن يجالسه أو يشاركه الحوار ، لذا كان يسعى من أجل جمع المال بكل شراسة مع كل من حوله .

ووافقت ربا على طلب آدم ومضاعفة المبلغ المالى نظير رسمه للوحات ، ولمَ لا وما يكسبه والدها في تلك اللوحات لمجرد توقيعه عليها مئات الآلاف من الجنيهات وأحيانا يتقاضى أتعابه بالدولارعندما يبيع لوحاته للأثرياء من عرب الخليج .

وبالفعل في صبيحة اليوم التالى كان آدم بالمرسم يفرض سيطرته وسطوته على كل من حوله ، وهنا همس أمير بأذن ملك قائلا :

هذا هو الملاك البرىء يا ملك هانم ، تودد إلى ربا حتى امتلك المرسم بأكمله .

مطت ملك شفتيها بغضب وقالت : ما يؤسفنى أنه يتعالى ويتعامل كأننا خدم عنده ، لا أعرف ما الذي أصاب عقله ، لقد كان الهادىء الوديع لقد انقلب حاله يا أمير .

فقال أمير : لا يا حبيبتى ، هذا هو الوجه الحقيقى له . لقد شاهده أحد الأصدقاء في فرح شعبى مرافقا لراقصة أو مطربة لا أعلم ، وكان بمثابة خادم لها ، أعتقد أنه انتهازى وعبد للمال أينما كان ،

لا أعلم لماذا يتنصل من أسرته أو معيشته فلم أحاول مرة أن أواجهه بذلك ، وبمعلوماتى عنه ، ولكن أفعاله زادت عن الحد ، هذا الأبله المجنون توهم أنه صاحب المرسم ! !

سألته ملك : هل تعتقد أنه سيتزوج من ربا؟ أطلق أدهم ضحكة عالية : لا لا أمر مستحيل ، هو مجرد أداه لتنفيذ العمل ، سيكون آدم شديد الغباء لو ساقه تفكيره إلى هذا الحد من الخيال .

هنا صاحت فيه ملك : يا أمير كفانى منك سخرية ، هل آدم أم أنا من تصفة بشدة الغباء؟

فأطلق أمير ضحكة ساخرة قائلا : بالطبع أنت يا ملك ، وهذا ما شدنى إليك لتكونى زوجتى المستقبلية .

فقالت له ملك : زوجة ماذا . . . وأنت لا تدخر مالا لهذا الزواج ، لا أعلم إلى الآن لماذا وافقت على الخطوبة .

فأجابها أمير : إنه الحب ، أنا أحبك يا ملك أليس هذا كافيا ، أنا لا أتاجر بمشاعر الفتيات وعندما أحب يكون حبى صادقا .

وعلى استحياء أجابته ملك : نعم . . نعم . . أعلم يا أمير .

ومرت شهور طويلة لم يحاول فيها آدم أن يعاود الاتصال بشمس، تلك الفتاة التي تمزقت بكارة أفكارها بعزوفه عن فض بكارتها كزوجة، شمس تلك المسكينة التي ألقت بحبها تحت قدميه فدهس هذا الحب بأفكار عبثية.

بل لم يفكر ذات مرة بالسؤال عن أخته ووالده الذي تكبد الكثير من اجل الإنفاق عليه طواعية لرغباته على الرغم من تحول معيشته إلى الأفضل عن ذى قبل، وسريان المال بيديه، وأصبح لدى آدم من رغد المعيشة الكثير والكافى لرد الجميل لوالده الفقير.

ولكنه تاه في دنياه الجديدة والتي كان يحلم بها، وتخيل آدم أنه بمجالسته الأثرياء صار منهم، حتى جاءت مناسبة ليلة رأس السنة، ودعته ربا للاحتفال معها بهذا اليوم في قصر أحد الأصدقاء.

وتأهب آدم لهذا اليوم واشترى ملابس جديدة من أغلى التوكيلات العالمية للملابس، لدرجة أن مشترواته تكلفت مبلغًا باهظًا يقدر بنحو راتب شهرين كى يليق مظهره بهذا الاحتفال، متخيلا أن بملابسه الغالية صار من النبلاء الذي طالما حلم بالتواجد بين حفلاتهم ومآدبهم كما حلم في الصغر حين كان يتأمل صورهم بالمجلات التي كانت تستعيرها أمه جميلة من البيوت التي اعتادت التردد عليها لبيع المخبوزات.

كانت نشوته بهذا الاحتفال كبيرة، وتذكر كلمات والدته له . . ستكون يوما ما من الناس الكبار . . يا آدم .

لم يكن يدرك آدم حينها معنى كلمة الكبار، فكان مجرد طفل يلهو في ساحة البيت الصغير بالألوان، يرسم على الجدران عصافير حرة وعلى الأرض الباردة كالصقيع يلون قلوبًا تبعث الدفء لخلوها من السجاد أو الفرش البسيط .

وفي هذا اليوم وأثناء تجواله بين المحلات أدرك كلمات أمه التي كثيرا ما كانت ترددها عليه في ذهابها وإيابها وهى تصحبه وتمسك بيده صغيرا في جوالاتها بين بيوت الأثرياء، وهذا الومض من عينيها في كل مرة تضع فيها حاوية رأسها وما بها من مخبوزات على الأرض وهى تتأمل التحف والكريستالات الضخمة التي تدلى من النجف وأعمدته النحاسية، ويدها النحيلة وهى تتلمس السجاجيد الصوفية والإيرانية من تحتها أثناء جلوسها على الأرض، بينما كان آدم يلهو على المقاعد الحريرية في انتظار مجيء الخدم لها بالنقود مقابل بيعها للفطائر والخبز .

وتلك اللحظة التي وقعت فيها عيناه على فيروز، تلك الطفلة الصغيرة والذي انبهر بجمالها وصيحته عندما رأها ترتدى شورتا من الجينز عارية الساق وتلعب بالدراجة في حديقة منزلها بإحدى المناطق الراقية بالإسكندرية، لا يتذكر المكان بالضبط ولكنه كان بيتًا فسيحًا على البحر ومدى لهفته للعب معها، وكلمات والدته في أذنه : ستتزوج

بأجمل منها يا آدم حينما تكون مثلهم ثريًا نحن فقراء جدا، مجرد خدم ببيوتهم وفى أعينهم نحن لا نساوى نعال أقدامهم، ولكن هل تعدني أن تكون ذات يوم مثلهم أليس كذلك يا آدم؟!!

وضحك آدم فرحا وعاد إلى حاضره قائلا: ها قد جاء اليوم يا أمي وصار ابنك آدم من تلك الطبقة التي لا ترى قلوبنا الهشة ولا يشغلها إلا ملابسنا الرثة، تلك الطبقة التي طالما حلمت بالعيش بين جدرانها، ولكنه الفقر ذاك المرض اللعين الذي يصيب أجسادنا بالخوف ونفوسنا بالضآلة.

وعاد آدم إلى بيته وألقى بجسده على الفراش ونظر إلى صورة جميلة الكبيرة المعلقة على الحائط وقال لها بصوت عال :

اليوم يا أمى أعدك أن أكون منهم، قد اقتربت اللحظة التي انتظرتها طويلا، وسأخبر ربا برغبتى بالزواج منها، سأعود إليك يا أمي منتصرا للفقر وللوجع الذي يلازم حياتى برحيلك رغما عنى.

وفي تمام الساعة السابعة مساءً دق جرس المنبه، فهب آدم من نومه والسعادة تغطى وجهه، ثم بدأ يستعد لارتداء ملابسه وصفف شعره بعناية، ووضع كمية كبيرة من عطر جاكومو على ملابسه الجديدة، وعند باب الشارع كانت بانتظاره سيارة ليموزين فاخرة قام باستجارها كى تصحبه إلى الحفل، وأمام القصر نزل آدم من السيارة منبهرا، فتلك

المرة الأولى الذي يرى فيها قصرا حقيقيًا، ودخل آدم بدعوة منحتها لـه ربا سابقا . .

كان صخب الأغانى هنا وهنـاك والمصـابيح الصـغيرة علـى الأشـجار تتراقص ألوان إضاءتها بين الأحمر والأصفر والأخضر وعلـى المناضـد بدت كريستالات متوهجة بالمصابيح المضاءة، وعلى أنغـام الموسـيقى كؤوس الخمـر بأيـدي المـدعوين تترنـح كأجسـادهم وهـى تتمايـل، وجاءت ربا مسرعة نحو آدم ورحبت به بصيحة عالية :

آدم . . . . صديقى صاحب المحـراب، أشـتقت إليـك، لم أراك منـذ يومين .

تعال بسرعة لأقدمك لصاحب هذا القصر، الفنـان الشـغوف بالجسـد مثلك ،عمر .

وشدته من يده إلى عمر الجالس في ركن بعيد في الحديقـة، والـذي بـدا منشغلا بقراءة رواية باللغة الإنجليزية، نظر آدم إلى عمر، شاب طويل ونحيل يرتدى نظارة طبية بسيطة وشورتًا أسود حريريًا وقميصًا مفتوحًا بألوان ممزوجة، وحول رقبته عقد جلـدى أسـود، يتـدلى منـه مفتـاح الحياة، للوهلة الأولى اندهش آدم من بساطة عمر، والذي بـدا هـادئ الطباع من كلماته المقتصبة عند ترحيبه بآدم .

وهنا قالت ربا : لقد أخبرت عمر عن لوحاتك ومدى قوة ريشتك يا فنان، ربما في القريب يكون بينكما عمل مشترك.

فرد آدم على عجل : عمل ماذا؟

فأجابه عمر، والذى بدى من لهجته أنه لا يتكلم العربية بطلاقة، وتسيطر على لغته الإنجليزية : أود أن أعمل معرضًا عن الجسد برؤيات مختلفة، وعلاقة الجسد بالمادة، تكوين الجسد، بالتأكيد رؤيتك للجسد تختلف عن رؤيتى وهذا التنوع هو ما . . . . ثم سكت عمر برهة من الوقت ثم عاود كلامه إلى ربا قائلا :

من فضلك ساعدينى واشرحى لآدم فكما تعلمين أنا لا أجيد اللغة العربية بطلاقة.

فنظر آدم إليه غاضبا وهل أخبرك أحد أنى لا أجيد الإنجليزية؟

هنا انسحب عمر من الحوار وبعد عنهما قليلا غير مبالٍ بانفعال آدم ،

نظرت ربا إلى آدم مندهشة تعاتبه : ما هذا الكلام يا آدم؟ هون على نفسك قليلا، إن عمر يمضى الصيف متجولا بين البلاد الأوربية، وكذلك دراسته منذ كان طفلا بالمدارس الأميركية، ولا يقصد الاستهانة بك مطلقا.

زاد غضب آدم وقال : لا علاقة لى بدراسته وسفرياته، فنظراته يبدو عليها الاستهانة بضيوفه.

فقالت ربا : مستحيل يا آدم، كيف تطرق هذا التفكير إلى عقلك؟ غير أن هذا عرض مميز بالنسبة لك، وسيبرز لوحاتك تكوين الجسد وعلاقته بالمادة أو بالطبيعة بأغصان الشجر بجداول الماء، وهكذا تفهم ما أقصده بالتأكيد. . فهز رأسه بالإيجاب فواصلت ربا حديثها قائلة : وأعتقد أن نجاح المعرض مؤكد.

فمن السهل على عمر أن يقيم هذا المعرض وحده دون اللجوء إليك، فلديه المال والمكان غير أنه ليس بحاجة للدعاية القوية، فهي موجودة بالفعل من خلال علاقاته ومعارفه والأصدقاء حوله، ولكنه مؤمن بفكرة التنوع.

وحينئذ اقترب عمر منهما بعدما أرسلت إليه ربا ابتسامة، فنظر عمر إلى آدم مبتسماً رغم الغضاضة التي أصابته من غباء تفكيره، ومدى حساسيتة للأمور، والتي أوضحت مدى النقص النفسى الذي يشعر به، ولكنه بادر بشرح فكرة المعرض المشترك بينهما مرة أخرى غير مبالٍ بغضبه.

وساد الصمت لفترة ثم جاء بعدها الرد على لسان آدم الذي بدا عليه القلق وقال :

سأفكر بالأمر.

تهللت أسارير ربا، ثم أنسحبت لمجالسة بعض الأصدقاء، وكذلك عمر انصرف عنه دون أن يبدى أى اهتمام لوجوده، فوجد آدم نفسه وحيدا لا يتكلم مع أحد ولا يعرف من المدعوين أحدًا مجرد وجوه اعتاد رؤيتها في صور حفلات المجتمع الراقى بالمجلات فلا يهتم لوجوده أحد، فأخذ يتجول بين جنبات الحديقة متأملا الوجوه الباسمة والملابس الغالية ورائحة العطور، الفرنسية التي تفوح بالمكان وينتشر شذاها كلما هبت نسمة هواء صيفية، وأكثر ما لفت انتباهه تلك الملابس العارية التي ترتديها المدعوات، والتي كانت شفافة بدرجة مبالغ فيها، حتى كادت أن تكشف عن عوراتهن.

أخذ آدم يتأملهن ويقارن بينهن وبين شمس وثريا وأمه جميلة وتضاربت الأفكار برأسه وهذا التضاد الواضح بين مجتمعه ومجتمع ربا، فعندما ترتدى ثريا ثوب مكشوف الصدر قليلا وتعود لبيتها ليلا تنهال عليها الاتهامات بالفجور والابتذال، بينما هذا العالم حر بلا قيود، فتلك النظرة الرجعية للعرى لا وجود لها، فالجسد حر لا تقيده الأقمشة بتنورات طويلة وأكمام واسعة بل تزينه وتزيده جمالا، وظلت التناقضات تتراءى أمام عينيه حتى قادته أقدامه إلى هذا البار الرخامى الموجود بمنتصف الحديقة، فجلس على أحد المقاعد العالية بجواره ثم تناول كأسًا من الخمر ولكنه لم يستحسن مذاقها، وضحك ساخرا، حتى الخمر درجات ولكل طبقة خمرها. . . ولكل طبقة خمرها، فكان طعم الكأس بيده يختلف كثيرا عن الخمر الذي تناوله مع أمير سابقا،

وشعر بالقيء، ولكنه سيطر على فمه بوضع منديل عليه، ثم أخذ شهيقا عميقا يواجه به هذا الاختناق الذي تسلل إلى قلبه عندما رأى ربا في وضع عناق حار مع عمر أثناء رقصهما على أنغام الموسيقى، واحتضان عمر لجسد ربا بذراعيه يلمس بيده خصرها مداعبا بأصابعه وشمًا كان مرسومًا أعلى صدرها، وكانت قبلة عمر لشفتى ربا بمثابة خنجر سام صوب إلى آدم، فلم يتمالك أعصابه ووجد نفسه يتجه إليهما وطلب الرقص مع ربا.

تعجبت ربا وضحكت تقول :

ماذا؟!!أرقص معك.. أنت يا آدم.

فقال لها عمر : ولم لا، فلترقصى حبيبتى مع آدم.

وانصرف عنهما.

ورأى آدم مدى تعلق ربا وقربها من عمر، فكذب نفسه وعينه متجنبًا تلك القبلات والهمهمات بينهما، ثم بادرها بسؤال مفاجئ :

ماذا لو نتزوج يا ربا؟

توقفت ربا عن الرقص ثم نظرت إلى آدم باندهاش وعلى لسانها سؤال : كيف وصل التفكير بآدم إلى هذا الحد؟ فلم يصدر منها ما يشير إلى تعلقها به أو ما يوحى بحب من طرفها.

فقالت له بنبرة حاده : ماذا أصابك اليوم يا آدم؟! ماهذه القرارت الغريبة والعجيبة؟!

ثم تركته وانصرفت عنه غاضبة، فاشتعل الغيظ بقلب آدم الذي أساء فهم اهتمام ربا بلوحاته معتقدا حبها له، لم يدرك آدم الفرق بين شمس وربا، وتخيل عقله أن جميع النساء يفرحن بالكلام المعسول وأن جميعهن راغبات فيه وبالزواج منه.

وبخطوات سريعة أتجه ناحية ربا مرة أخرى وشدها من بين صديقات لها وسألها : لماذا ترفضين الزواج بى؟ أثنيت على إبداعى الفنى وريشتى التي لا مثيل لها، لماذا إذن؟!!

فأجابته ربا بهدوء : وهل هذا يكفى يا آدم؟

ما الذي يدور برأسك بالله عليك؟ هل إعجابى بلوحاتك كافٍ لكى أتزوجك؟؟؟!!

وبثقة واضحة نظرت في عين آدم وقالت : غير أن الأمر أبسط من ذلك، فأنا زوجة عمر.

جحظت عينا آدم من هول صدمة الكلمات على رأسه، ثم نظر إلى ربا متحديا لها وعاتبها : لم أعلم من قبل أنك متزوجة.

حينئذ أقبل عمر ناحيتهما وأمسك بيد ربا وقبلها في كفها، ثم نظر ناحية آدم باحتقار وقال له : وهل من الضرورى أن يكون بيننا عقد زواج لنعلن عن زواجنا؟

وادار عمر بجسده بعيداً عن آدم ووجهه إلى ربا قائلا بسخرية :

ما هذا العقل المشوه الذي أتيتمي به إلى حفلنا اليوم؟!

فرد عليه آدم بغضب واضح في صوته : العقل المشوه بتلك الأفكار هو عقلك أنت يا . . . يا عمر، والعاهرة أنت يا ربا .

فصاحت فيه ربا : ماذا تقول يا غبى . . . أنا عاهرة؟ يبدو أننى لم أدرك حجم الكارثة العقلية التي أتعامل معها، ماذا ظننت نفسك أنت؟ لقد كنا نريد نسلط الضوء على أفكارنا من خلال أفكارك العقيمة عن الجسد، تلك الأفكار التي رأيتها في عينك ومدى شغفها برؤية جسدى .

نظر عمر إلى ربا وقال متأففا : من هذا المعاق فكريا!!

لقد أخطات يا ربا وأتيت بهوام من قاع المجتمع لتجلس بيننا .

كانت لكلماته وقع قاس على نفس آدم، الذي شعر بالخزى والهزيمة ومدى ضآلة حجمه أمام سطوة المال والنفوذ والعلاقات العامة .

ووجد أقدامه تسوقه نحو باب القصر بسرعة، بينما دقات قلبه تنافس أقدامه في سرعتها حتى كاد أن يسقط على الأرض عدة مرات من أثر التواء قدمه المتكرر، وتعثره في بعض الحجارة الصغيرة وهو يجرى بعيدا بعيدا على قارعة الطريق، وبعيدا عن القصر واستوقف تاكسى يمر بالصدفة في هذا الطريق الخاوى من المارة ومن البيوت، فالبكاد سيارات تجرى بين الحين والآخر وقصور مترامية على أطراف الطريق وتبعد عن بعضها مسافات طويلة.

وسريعا قفز آدم بجسده داخل التاكسى.. لم يحدد آدم وجهته وبدى مثل لص هرب من خلف أسوار سجنه وكل ما يبتغيه هو بعض من نسيم الحرية.

فعندما سأله السائق عن وجهته أجابه آدم ساخطا: فلتذهب بى إلى الجحيم.

اعتدل السائق في مقعده ودار برأسه ناحية آدم قليلا ثم عاود النظر إلى عين آدم التي تفيض بالدموع من خلال متابعته له في المرآة الأمامية وسماعه صوت آدم وهو يحدث نفسه ويوبخها.

كان السائق خمسينيًا واشتعل الشيب بشعره بعض الشيء، فأدرك بخبرته العمرية أن هناك أمرًا ما لا يتحمله هذا الشاب في ليلة رأس السنة، تلك الليلة الصارخة بالهرج والمرج، فما كان منه إلا أن ظل

يطوف الشوارع بالسيارة ملتزما الصمت، وحين اقتربت دقات عقارب الساعة من وقت منتصف الليل، سأل آدم متوجسا :

من هى المرأة التي تستحق هذا العذاب الذي أراه بعينيك؟

كلهن حمقوات يا بنى ولا يستحققن إلا الموت. . . أنت مازلت صغير السن ولا تدرك الكثير ولكن هذا الشيب الذي دب بشعرى أخذ من عمرى وعلمنى أنه لا أمان لامرآة قط على وجه الأرض، هل تسمعنى يا بنى؟! . . . فلتتكلم أنا أسمعك كل أذان مصغية.

وما أن سمع آدم كلام السائق حتى انفطر في البكاء مثل الأطفال، ولم يتمالك نفسه وظل يبكى، ما جعل السائق يوقف تشغيل موتور السيارة وركن بها على الرصيف الملاصق لشاطئ البحر ثم نزل من سيارته وبوجه بشوش طلب من آدم أن ينزل هو الآخر ويتبعه اندهش آدم من طلب السائق وتأمله فشده السائق من يده بروح أبوية وجلس إلى جواره بأحد المقاعد الخشبية المصنوعة من جذوع الشجر والتي تزين الكورنيش، ثم ضمه إلى صدره وقال له على ما يبدو أن احتفالى بانقضاء هذا العام وحلول العام جديد سيكون معك في تلك الليلة. . .

ربما أرسلنى الله لك أو أرسلك لى. . لا أعلم ولكنك تذكرنى بابنى. . . كريم أخذته أمه من حضنى وهجرتنى من عدة أعوام، خمسة عشر عامًا مرت قاسية تعبت من عد لياليها الطويلة.

كانت محبة للمال وترغب بالسفر إلى الخليج، وكنت أرفض السفر يا . . . . .لم أعرف اسمك بعد؟

اسمى . .آدم .

حلو اسم آدم . . .وبالتأكيد حواء هى السبب وراء خروجك من الجنة .

فضحك آدم وهو يمسح دموعه، وضحك السائق قائلا : أنا يا آدم يا بنى، أعذرنى لقولى ابنى فكم أتمنى أن أراه، وتنهد طويلا ثم نظر بعيدا نحو البحر وقال: السمك لو خرج من البحر يموت وكذلك أنا لو تركت بلدى وهجرتها أموت .

انتبه آدم لحديث السائق وقال متلهفا لسماع الحكاية :

ثم ماذا يا أبو كريم؟

لا شيىء لا شيىء طلقتها يا بنى فأنا لا أستطيع العيش مع امرأة لا تنتهى رغباتها ولا تشبع عيناها، وهى سافرت في ما بعد وأخذت كريم معها، أخذت الحياة وتركت روحى تائهة لا تجد جسداً تسكنه، فجسدى مات بغياب الروح عنى . . .لم كريم من ١٥ عامًا وبيد مشحمة بالزيت والبنزين يد أنهكتها الدنيا شقاء مسح دموع ضعفه ثم استطرد حديثه قائلا: علمت أنها تزوجت من رجل ثرى يعمل بالخليج في البناء، رجل يستطيع أن يحقق أحلامها التي لا تنتهى .

أشتاق لابنى كريم، كم أتمنى أن أراه قبل أن أموت!

فسأله آدم : ولمَ لم تتزوج بعدها.

فأجابه مرتعشا لا.. لا لا

كنت أحبها ومازلت ولكنها كباقى النساء، عاهرة تبيع جسدها لمن يدفع أكثر، كلهن يا بنى عاهرات سلاحهن الكذب، كلهن سافرات، ثم ضحك وقال : وفى الفراش حمقوات!

فكان الرد سريعا على لسان آدم : ليست عاهرة، هى تزوجت بآخر وبعد طلاقها منك.

فقاطعه السائق : أجل تزوجت ولكن بمن؟ لمن يدفع أكثر، وباعت حبى لها، أراها لا تختلف كثيرا عن العاهرة ولكنها... عاهرة بأوراق رسمية!!! أو ربما جارية فدائما تتهافت الجاريات على نيل المطالب بالتدنى!!

اندهش آدم من كلام السائق ووجهة نظرة رغم حبه لزوجته والذي مازال يسيطر عليه.

وساد الصمت برهة من الوقت إلا من دخان سيجارة أشعلها السائق، ففزع آدم عندما وجد السائق يضع السيجارة في فمه بالمقلوب، فصاح فيه : انتبه فأجابه السائق : أنا أدخن بشراهة مختل وكثيرا ما أمسك

بسيجارتى عكسيا وألسع لسانى عند كلامى معها في الخيال كى يتوقف عن قول أحبك .

وساد الصمت بينهما مرة أخرى .

فقطع آدم هذا الهدوء بصوت خافت قائلا : لك أن تعتبرنى ابنك كريم ، وسيمن الله عليك برؤيته قريبا ، ثق وتيقن بقرب لقائه هون على نفسك! فضم السائق آدم إلى صدره وذرفت دموعه ، فهو لا يبكى بسبب خوفه على ابنه ولكنه يبكى من الحزن هو يخاف الموت قبل أن يرى ابنه فمابه من هوان ، وما بكى يعقوب خوفا ، ولكن حزنا ، وما أبكى السائق صبره بل أبكاه الزمان ! !

ثم مسح السائق دموعه ورفع يده إلى السماء داعيا والهزيمة تملؤ صوته : يا الله .

ودقت عقارب الساعة الثانية عشر من منتصف الليل ، وانطلقت الألعاب النارية في السماء من كل جهة ترسم قلوبًا حمراء ونجوم زرقاء وصفراء ودوت الطلقات النارية في الهواء معلنة قدوم عام جديد ، وضحك السائق وربت على كتف آدم وهم بالانصراف ، فأخرج آدم من جيبه نقودًا نظير أجرة التاكسى لساعات طويلة ، وحينها رفض أبو كريم قائلا : ألم تخبرنى منذ قليل أنك مثل ولدى كريم؟ والأب لا يأخذ نظير أتعابه ، لقد كنت بحاجة إليك أكثر من حاجتك لى ، فلا

يوجد في الحياة ما يستحق الحزن، اقتنص منها فرحتك ولا تشترى الأوهام.

ولا تبحث عن الحب الطاهر، فالكل يرتكب الرذيلة ويرى نفسه من الموالى، فالجميع مهزوم يا بنى، الكل يضحك وبداخله غليان ربما تجد الرؤية ضبابية بعض الوقت، وانحناءة الظهر تذهب عنك الأمان، الجميع مهزوم والصبر سلوان فلا تبال ستزيد الانكسارات وتتابع الهزائم تلو الأخرى مثل الزلازل تهز أركان وجودك، وستمنحك الحياة خفقات وتنسحب روحك إلى الغرق في دوامة من الموجات ستعلو وتعلو حتى تأتيك الخيبات وترميك طريحا في الطرقات، ستتوسل الحب والعطف والحنان وتمد يدك تطلب الأمان سيهرب الجميع عنك كحيوان أجرب حين تخذلك الدنيا، وتأخذ منك بهجة الزينات. . . سترى الوجوه وهى تتلوى مثل حرباء في صحراء جفت آبارها فصارت جرداء صفراء، تلك وجوهم وهم يبتعدون عن مواجهتك كى لا تذكرهم بحماقتهم وقلوبهم نحوك السوداء ستهذى بعض الوقت وتصرخ.

فتحد يا بنى وانبهر بكل الحاجات وأترك شغفك بصواب الفكرة ودعها تمر بكل الأصفار وارسب حتى يمل الفشل من فرحك، واضحك كل الساعات، اضحك وقت الأزمات افرح فالقلب النابض

بالحب حى والقلب الجامد بالمادة والكراهية سيموت وإن بقى حيا، فبصيرة قلبه معتمة والنور بعينه قد مات.

وهب السائق من مكانه وأمسك بيد آدم بقوة بينما كان جسده يرتعد من رياح باردة أتت فجأة، ثم ودعه وانصرف، وظل آدم جالسا مكانه يتابع بعينيه فقط المارة ويتلصص على أصوات الضحكات المنطلقة عبر زجاج نوافذ السيارات، تلك الضحكات غير المعروف صاحباتها هل هن من العفيفات؟ ربما، أو من العاهرات، وأفزعته سرعة جنونية لسيارة كادت أن تصطدم بالرصيف لرجل مخبول ببيع الهوى يقود عربة من العاشقات السكارى في درب ممهد من الأكاذيب ،

وتوارد إلى ذهنة سؤال :

هل حقا كلهن عاهرات؟وخلال لحظة تفكيره وجد أمامه إحداهن تترنح ثملى. . امرأة لعوب أحمر شفاها قان بلون كل الدماء التي سفكتها بمكر ابتسامتها، ثم جلست إلى جوارِه ووضعت يدها على كتفه واقتربت بوجهها من شفتيه وسألته هل تنتظر أحداً؟ أم فراشك بحاجة لى!

انتفض آدم وابتعد عنها بجسده ونظر إليها ودقق النظر في ملامح وجهها المطموسه بأطنان من أحمر الخدود والشفاة التي بدت ملتهبة.

وسألها : من أنتِ؟

فأجابته : من أنا!!!وأطلقت ضحكة عالية توقظ الميت من مرقده وقالت : لا أعلم من أنا، أنا النغمة الشاذة لوتر المشدود في لحن عشوائى، أنا صعلوكة، جسدى يجود بالحب وينفث دخان الصدق على وسائدك، أو ربما عروس البحر التي هجرت عالمها واختارت المعيشة على أرض الهوى.

فسألها متعجبا : وما الهوى إذن؟

فأجابت ساخرة: ما الهوى إلا لكل من هوى، هكذا كانت رحلتى في درب الهوى، أنا الرذيلة بمنتهى الدقة الصادقة، فهل تقبلنى وسادة لأحلامك ببعض جنيهات أشترى بها قوت يومى، أم أموت جوعا في رحاب زهدك عنى؟

ورعدت السماء خشية، وتساقط المطر، فخلعت حذاءها وصارت حافية القدمين بلا قيود تحكم أناملها ترقص تحت المطر، تتعالى ضحكاتها، مجنونة وجذبت آدم بيدها يرقص معها فصار بين يديها شارد الذهن مملوكًا أسيرًا قد مسه العشق، فأمسكها آدم من يدها وأسرع معها بخطوات هزليه وابتسم ساخرا وقال :

فليكن، هيا بنا، واستأجر تاكسى متجها إلى محرابه الصغير.

وهناك خلع عنها حياءها المصطنع وكشف عن أسرار جسدها الذي كان يتوارى تحت ثوب مخملى، وأطلق سراح شعرها على فراش المتعة

واقترب من جسدها ينهل من جنتها رمانًا نضجت حباته ودنا منها ودنت وارتشف العشق الممنوع رويدا رويدا، فصرخت فيه الرذيلة يا أحمق لم تكن جيدا فأناملك ترتعش وهى تلمس جسدى وشفاهك باردة وجبينك يتصبب منه العرق خوفا، يا أحمق تحتاج إلى مزيد من الحرية، فأنت مقيد بأفكار عقيمة اسمها الطهر، أراك تلعق بلسانك أصابعى مثل رضيع يتحسس الدنيا ،

فلتعبث بالدنيا وأشعلها بعود ثقاب ولا تبال بمن يحترق ودع لهيب جسدك يحرق أواصرى، أنا الدنيا ومتعتها فلتأخذ منها رحيقها واصنع شهدك، فلن يصنعه غيرك .

ضحك آدم عاليا : أجل سيدة عشقى فمشاعرى كحبات الزئبق لن ينال منها أحد إلا ونفذ بجسده السم . تأملى البريق فقط، فلم أدن يوما من شط البحر، ولن أطلب النجاة بل يكفينى الغرق في بحر موجه متلاطم والعشق الثائر في عينيك، وسلام عابر يعصف قلبى بكف يدى وهو يخترق يديك، هل تسكر حقا شفتيك؟لم أنهل منك سوى بسمة رفقا بالفارس، كم قلب قتل بسيف العشق؟وأنا في النار سأخلد مشتعلا وأسكن جنة نهديك .

ومرت الأوقات . .

غاب فيها كل منهما عن الدنيا لحين بزوغ الشمس فأحذت تلك الغانية تلم أغراضها المتناثرة على الفراش وترتدى ثوب العفة وتمد يدها إليه توقظه من غفلة أصابته وتطلب منه أتعابها .

فتح آدم عينه وتأمل وجهها الهادئ الخالى من المساحيق ، فرآها كمن لم يلقها ليلته ورأى الطهر بعينيها رأى رعشة يدها وتوجسها وهى تمدها نحوه ، والخوف من أن يردها صفرا بلا نقود فأمسك آدم بها وشدها إلى جواره على الفراش وقال لها : سأمنحك المزيد من المال مقابل أن أرسم جسدك في لوحة عارية . . أراك مثل عروس البحر التي لم أعرف اسمها بعد .

فأجابته : اسمى؟ لم يسألنى أحد عن اسمى من قبل ، حتى كدت أن أنساه ، أنا شهد ، فقال لها سريعا : أجل يا شهد فلتتركى جسدك لى كى أرسمه لوحة من لوحاتى ولك كل ما تطلبينه من مال وطعام ،

فجسدك يغوينى وبراءة عينيك تنادى فرشاتى وألوانى .

برقت عين شهد وسألته : لماذا تتعامل معى كسلعة أنتهت فترة صلاحيتها؟ فنظر إليها ساخرا : لأنك بالفعل فاسدة .

فسالت على خدها دمعة ، فسألها آدم : ما سبب دموعك؟

فأجابت مبتسمة : أشعر بالهزيمة .

ولماذا تلك الابتسامة وقت الهزيمة؟

لأقاوم دموع طاهرة لم يمسسها بشر ، فلا أملك أسلحة أقاوم بها طعنات العمر إلا أن أصمت وأبتسم حزنا وأقول لا .

لا على ماذا يا شهد؟

لا لن ترسم جسدى . . . محال يا سيدى كيف أترك جسدى سلعة يراها كل من هب ودب في صورة؟ مستحيل أن أسمح لك بهذا .

وهنا صاح فيها آدم : وماذا عن أرتواء جسدك بماء يصبه الشيطان في أرضك ، وعن نومك بفراشى ومنحك لى جسدك أنهل منه كما أشاء؟ أليس هذا عهر يا طاهرة؟

ترفضين أن أرسمك علنا وتمارسين الرذيلة بالخفاء ، أى عهر هذا يا شهد؟ أنت أقذر كائن خلق على سطح الأرض .

فأجابته وقد اعتادت على كبت دموعها :

بالفعل سيدى أنا أقذر الكائنات ، ولكن لا أجاهر بالقذارة والعهر ، لعل الله يهدينى إلى الصواب ذات يوم وأجد من يرعانى ويرعى أسرتى المسكينة .

وباستهانة قالت : على ما يبدو أنك من صفوة القوم ، هؤلاء الذين لا يعرفون الموت من الجوع ولم يدق المرض باب حياتهم ، فلم تجد نفسك حائرا بين الفضيلة أو كتم أوجاع المرض ببيع كل القيم من أجل ألا تسمع صوت الأهة على لسان من تحب ، فلتسمح لى بأجرة ليلتى

معك والانصراف سريعا، فأنا أعلم جيدا أن الدنيا جارية تبيح جسدها في فم الأسياد، وأنا الدنيا وأنت من الأسياد، فلست بحاجة للحكم والمواعظ ولا أقبل الحكمة، فطريقى مملوء بالعثرات التي أفقدتنى توازنى فلم يبق لى غير العبث، وأكره الحكمة من فيه العقلاء، سمجة كألسنتهم وهى تتلوى بالحكمة.

فهناك أسرة تنتظر عودتى إليها... أسرة تعيش في حجرة مظلمة لا تعرف الضوء إلا بطلوع الشمس وهناك أطفال بحاجة لرعايتى زوج طريح الفراش مريض أعمى لا يرى قبح أفعالى ولكنه يرى حبى له.

فضحك آدم عاليا وضحك وظل يضحك حتى سقط على الأرض وقال: أراك تتكلمين عن الحب! هل تتكلمين بصدق يا سيدة الصون والعفاف وتعنى قولك!! أى حب هذا... !! وهل بيع جسدك كل ليلة ثمنًا لمن يشتهيه حب؟ أنت ملعونة حقيرة وهشة.

فأمسكت بحقيبة يدها الملونة مثل قوس قزح وقالت: نعم كلماتى هشة يكسوها العبث كروحى وهى تشتهى حلوى السكر في بئر مرار.

فأشار إليها آدم: اجلسى يا شهد ودعك من هذا الكلام.

ثم أشعل سيجارته وقال مداعبا بيده شفاها: سأطفئ نار دخانى في حريق جسدك وأعزف مقطوعاتى الصاخبة على أوتار قلبك وهو يئن

وحين أراك تشتعلين سأصب عليك اللون الأبيض فلعل نقاء اللون ينقى جسدك .

سأرسمك لوحة حلوة، جسداً تثور من أجله الرجال، جسداً تشتهيه كل حقب الزمان، وجهًا بلا عين، فأنا أخشى النظر لعينيك، وأرى بهما قبح الرذيلة وأيضا لا أحب عينيك ترانى بهذا الهوان أمام حبك المحتال كسحر أصاب قلبى وأفقدنى الحكمة فلم يعد لسانى ينطق إلا ببعض الهذيان، أساحرة أنت؟

اندهشت شهد وأجابته : بل عاشقة .

فرد سريعا :

لا لا أنت كاهنة سحرت روحى بالأمس وجسدك يرقص في معبد يلفظ سمه مع دق الأرض بقدميك، فأنا أخشى النظر لعينيك فأنا أراها في هلوسة عينيك اللامعة بومضات حياة لست هى ولكن كلماتك تنبض بروحها .

من هى؟

هى . . وصمت آدم للحظة وقال :

هى من تابت ورحلت ونامت فسكنت . . هدأت فباتت وصارت سكننا . . سكنت فحبت وعشقت فماتت!

من هى؟

غير مهم . . غيرمهم .

وصرخ فيها : كلكن عاهرات عاهرات، ثم أخرج من جيبه عشرات من الجنيهات وقذف بها في وجهها وتناثرت النقود على الأرض، فانحى جسد شهد على الأرض وطأطأت رأسها تلم النقود المبعثرة هنا وهناك وتدسها في صدرها بلهفة وعلى عجل، وبعد أن قامت بجمع كل النقود الملقاة على الأرض أخرجت من حقيبتها القماشية إيشارب قطنيًا بلون رمادى ووضعته على شعرها وهمت بالانصراف ولكن الانكسار الذي بدا عليها أربك آدم وشعر بمدى حقارته، ففى عينيها كلمات كثيرة ولكن الحروف مبعثرة وعند باب الخروج جمعت شهد كل قوتها وقالت له :

لقد طعنت روحى وأصابت كلماتك جسدى وشعرت أنى عارية هذا العرى الذي كشف عن ضعفى وقلة حيلتى، مالا تعرفه سيدى أن جسدى سلعة، ولكن روحى العاشقة لا يملكها أحد، أمنحها فقط لمن من أجله أبيع جسدى .

أسرع آدم ينادى عليها بعد أن أغلقت الباب خلفها محاولا أن يعرف عنها المزيد، ولكن بعد فوات الأوان، لقد أختفت شهد سريعا كالسراب وصارت ذكرى .

وأخذ آدم يدور بين لوحاته ويدور وبصوته تعالت صيحاته يصرخ ويصرخ .

واقترب من صورة أمه جميلة وصاح فيها : لماذا أنتِ يا أمي لماذا؟

وأخذيدق بيده على الحائط ويصرخ كالمجنون : لست عاهرة يا أمي لست عاهرة، فجميعهن تاجرات بالجسد في سوق الجوارى، وأنتِ العفة والنقاء التي لم يمسها بشر، رحلتِ يا أماه رغما عنى وغابتَ محبتك لأنك لم تتحملى نظرات الشك والريبة بعين والدى عندما أرسل لك أحدهم مبلغًا كبيرًا من المال نظير رسمه لجسدك، أتذكر كلماتك جيدا لوالدى أنه سيد ونحن عبيد والعبيد ليس من حقهم الاعتراض، وأنه باع لوحته بمبلغ ضخم ويرغب برسم المزيد من اللوحات ولكن ثق في لم يمسسنى قط!

لم يشفع لك حبك ولا مساندتك له بالتجول منذ الصباح على المنازل وبيع المخبوزات، لم تشفع لك توسلاتك وركوع جسدك أمام قدميه بأنها المرة الأولى وستكون الأخيرة التي تسمحين فيها بخلع جلبابك ورسم جسدك، كان يراك عاهرة رغم يقينه بعدم لمس أحد لك سواه.

كنت أرى حزنك وبكاءك كل ليلة وجسدك يتضاءل من قلة الأكل كنت أرى لهفتك وراء أبى كى يصفح عنك وهو يركلك بقدمه دون كلام، وأسمع أنينك وأنت تبررين لى فعلتك، أنا أحبك يا بنى أنت الأغلى في الكون يا آدم أنت الروح التي بها أعيش ولن أسمح أن أراك أقل منهم، أنت لست أقل من ابن العمدة وابنة البيه صاحب المرسم، وستكون أفضل منهم وستملك الحدائق والقصور ستركب السيارات

الفارهة وأنا بجوارك، كنت لا أفهم كلماتك حينها ولا أدرك ماذا حدث كى تنقلب حياتنا إلى هذا الجحيم، ولكن برحيلك فهمت.

وأمسك آدم بصورة جميلة يكلمها يئن بالخزي أبى ليس قاسيا يا أمي، ولكنه محب مطعون بخنجر أتاه من الحبيب في ظهره، هل خانك ذكاؤك يا أمي عندما تخيلتى أن كشف عوراتك لآخر دون أن يلمسك ليس بعهر؟

أنا أعيش في حالة من التوهان ولا أعرف ما الحقيقة!!

وصاح آدم في الصورة : أخبرينى جميلة ما هى الحقيقة أخبرينى أنك لست عاهرة أريد أن أكرهك... نفسى عليلة يا أمي وحبك مرض أنهك حياتى وخطواتى التي لا أرى فيها غيرك كالظل يلازمنى، كالطيف يكلمنى.

آه من الوجع بقلبى آه من ضيق نفسى آه من الصبر على فراقك آه يا أمى.

وخرج آدم إلى الشارع هائما، وذهب إلى البحر وعلى الرمال البيضاء خلع عنه ملابسه وألقى بجسده في الماء لعله يتطهر من الرذيلة التي ارتكبها في ليلته السابقة وظل آدم يسبح في الماء حتى حل المساء لم يشعر خلال تلك الفترة بالجوع أو العطش، كان يريد أن يغسل كل ذنوبه ويتطهر.

وبعد مرور ساعات طويلة فوجئ بنفسه وحيدا في الماء، فلم ينتبه لصفارات رجال الشاطىء وهم ينادونه لكى يخرج، ولم ينتبه لخلو الشاطئ من الناس إلا بحلول الظلام.

فخرج من الماء وبحث عن ملابسه التي كان وضعها على أحد المقاعد البلاستيكية بالقرب من عمال الشاطئ، وعلى عجل أرتدى سرواله فكانت قطرات الماء تتساقط من شعره على وجهه وكان جسده مبللاً فبلل قميصه ولكنه لم يهتم للأمر كعادته في التأنق، وشعر بخفة ما في جسده لم يشعر بها من قبل، كان سعيدا مبتسما لا يعرف السبب حتى ساقته أقدامه إلى مسجد الإمام الأباصيرى.

وعند أذان العشاء دخل آدم إلى ساحة المسجد وشعر بصوت المؤذن يطربه فصلى مع المصلين، وتسلل بداخله شموخ لم ينتبه له من قبل، كان دائما يبحث عن سعادته في ملابس غالية وخطوات متأنقة وشموخ وعلو مصطنع، ولكنها المرة الأولى التي يشعر فيها بسعادة حقيقية حين اقتربت رأسه من الأرض ساجدا، فأفرغ غضبه بالدعاء وحين الانتهاء من الصلاة أسند ظهره على أحد أعمدة المسجد القريبة، فدنا منه أحد الدراويش مرتديا جلبابًا أخضر وحول عنقه عدد كبير من السبح الملونة ذات الأحجار الكهرمانية الكبيرة وأشار إليه بعصا قائلا : إن الله معك والأعمال بالنيات ولكل أمرئ ما نوى أعلن انكسارك وأحجز ركنا في محراب الزهد والمس الأرض بكفيك وأنفك التي طالما أدعت

الشموخ، ودع الدمع يسيل مختبئًا في الثرى وتركه ورحل عنه هائما بين جنبات المسجد مرددا بصوت عال لكل أمرئ ما نوى. . . .

وكأن كلمات الدرويش جاءت لتبلغه ألا يبحث عن الحقيقة وراء كل فعل، فداخل كل نفس خباياها التي لا يعلمها غير الله فالعاهرة لا يعلم بداخلها غير الله، وكذلك الناسكة لا يعلم قدر صفاء سريرتها غير الله.

فتجرد آدم من الدنيوية وأطلق يده للسماء وزفر زفرة كبيرة وتنفس الصعداء ونادى متسائلا : يا الله يا الله، أسير بكل الدروب شاردا فقلبى عتمة ورجمتنى الحياة على أرض الخطايا وتدعونى للعبادة. . كيف. . كيف؟

يا غايتى وسندى يا من بيده المدد، الدفء غاب عن روحى وتجمد القلب وجرحى أيام تبكى على أقدام الدنيا.

وفجأة ظهر في صحن المسجد جمع كبير من الصوفيين يلتفون في حلقات حول بعضها على الأرض، يوقودون الشموع وبالمديح يرددون : مولاى صل وسلم دائما أبدا. . على حبيبك خير الخلق كلهم.

وشعر بالذكر يدق باب عقله بسماعه أصواتهم قوية تهتز لها المشاعر، فاقترب منهم وجلس إلى جوارهم يستمع لهم، كانت الأرض تهتز

لطهارة أرواحهم وهى تلبى : يا الله يا الله، وكانت رائحة المسك تعبق المكان، وجد أحدهم يعطيه بسكوتا والآخر يطلب منه أن يفتح يده ليعطرها بالمسك، وفتح آدم يده ومسح بالمسك وجهه وتنفس وأخذ شهيقا عطرا وأخرج زفرات الشيطان.

وبدأ لسانه يردد معهم الابتهالات والمديح، وسمع زغاريد وأكواب من الشربات الأحمر توزع وكأنه يوم ميلاده وابتسم آدم وابتهج مرددا معهم

(فإن أمارتى بالسوء ما اتعظت. . . . . من جهلها بنذير الشيب والهرم ولا أعدت من الفعل الجميل قرى. . . ضيف ألم برأسى غير محتشم)

واستوقفه المديح عندما قالوا :

(فلا ترم بالمعاصى كسر شهوتها. إن الطعام يقوى شهوة النهم، والنفس كالطفل إن تهمله شب على. . حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم)

وآدم مازال الطفل المدلل الذي يريد أن يأخذ بلا عطاء، ذلك الطفل الذي لم يكبر بعد وأسير حنان أمه وصدرها.

وتعالت أصوات الذاكرين :

((كم حسنت لذة للمرء قاتلة : من حيث لم يدر أن السم في الدسم))

ولمست كلمات الذكر نفسه فشعر بضآلته وكم هو صغير اعتاد الأخذ واعتاد الأنانية، فخرج من ساحة المسجد باكيا راجيا السبيل إلى الله.

وبدأت رحلة جديدة في حياة آدم، وعاد إلى محرابة الصغيرة زاهدا متجنبا كل فتن الدنيا، عابدا ناسكا يمضى الساعات الطويلة في قراءة القرآن والذكر والصلاة، مرددا : طرقت بابك بذل وهوان تقبل توبتى من الكبر والفخر يا الله تقبلنى ذليل أنهك حاله الزمان.

فكان يبكى لساعات طويلة يطلب من الله العون على الحياة بإيجابياتها وسلبياتها.

واعتاد آدم الذهاب لحلقات الذكر، وأطلق لحيته وصار غير. . . غير آدم وتحول تحولا كبيرا حتى فرشاته وألوانه لم يعد راغبا فيها.

وعشق المديح وعشقت فرشاته ألوان التنورة وهى تدور ،

فكان يجلس بالساعات بالقرب من باب المسجد يرسم لوحات بسيطة للزوار الذين يأتون من كل مكان ومن رواد الأمام الأباصيرى.

وصار منكوش الشعر مرتديا السبح الملونة في صدره رث الثياب لا يهمه ولا يعنيه فيها سوى طهارة قلبه، معروفا بين الشحاذين والباعة المتجولين المنتشرين حول باب المسجد، فكانوا ينادونه بالفنان الأصيل.

وأحبه أهل المكان وأعجبتهم رسوماته.

ففى هذا المكان لا أحد يهتم بنسبه وفصله وأصله، ولا يهم أحد معرفة ماضيه فلا يشغلهم إن كان ابن وزير أو غفير، فتجده كثيرا ما يجلس على الأرصفة بجوار بائعى البخور والسبح متأملا بساطتهم ورضاهم وقناعتهم بأن الحياة زائلة.

وذات يوم وبعد خروجه من المسجد بعد صلاة العصر اتجه ناحية الصحن الخارجى وجلس مستندا على الحائط الرخامى وأقدامه ممدودة في راحة وسكينة، متأملا قبة السماء وزرقتها مستمعا لصوت خرير الماء من الصنابير التي توجد بوسط الصحن، مراقبا للعباد لأحزانهم ولأفراحهم، فالكل عند باب الرحمن يسعى، فلمح أحدهم إلى جوار عمود رخامى جانبى يئن بالبكاء فدقق النظر فيه، فإذا به والده سرور يجلس متكئا على البساط الأخضر وقد بدا على وجهه الضيق وفى جسده التعب.

لم ينتبه سرور لآدم وهو ينظر إليه، فكان يبدو عليه الحزن الشديد والتوهان.

فتحرك آدم نحو أبيه مسرعا وجلس أمامه خجلا خاضعا متألما وقال: أبى أبى.. يا سيدى اشتقتك واشتاقت روحى لقربك.

فرفع سرور رأسه وتأمل آدم وتحسس وجهه بيده والدموع تذرف من عينيه وحضنه كما لم يحضنه لسنوات طويلة.

فأخذ آدم يقبل يد أبيه والفرحة تغمره، ثم سأله : ماذا بك يا والـدى؟ أراك مهموما . . .

فجاوبه سرور : ما أحوالك أنت يا آدم؟

أراك غريبا . . . أخشى عليك من فتن الدنيا .

فرد آدم مشيرا إلى نفسه :

يا أبى، هذا الزاهد لا تخشى عليه من فتن الدنيا وزينتهـا . . بـل تخشـى عليه من نفسه وهى تراوده بالموت .

لقد كنت غريبا والآن عرفـت نفسـى ووجـدتها ووجـدت ذاتـى، أنـا صـعلوك أراقـص الـدنيا راغبـا فيهـا أن تسـقط تحـت قـدمى سـكيرة وأصبحت سـكيرًا لا يـرى الـدنيا إلا في تنـورة العبـادة وهـى تـراقص روحى بالذكر .

فقال سرور : وأنا غابت نفسى، فمازالت نفسى مريضة لم تشف بعد من فعلتها .

دقق آدم النظر في عين أبيه وسأله : تقصد أمي جميلة؟

فأدار سرور رأسه بعيدا عن وجه آدم وارتعشت أكتافه وقال : نعم هى جميلة .

كانت أحلامها تفوق حدود تفكيرى، وسقطت في بئر بقوة الغرور، تخيلت جميلة أنها ستملك الكون لم تشكره على نعمه ونعمتنا بوجودك في حياتنا، وباعت جسدها في سوق النخاسة.

فرد آدم : كانت تحبنى بجنون وترغب بشراء الكون لى، ولكن.. جلبت لنا التعاسة، أوهمتنى بأن السعادة في امتلاك الأشياء ولكن حضنها لى كان كفيلاً أن يسعدنى العمر كله، وأن تبقى حية بجوارى! فقلبى عليل بالفراق، وبداخلى صوت آهات مكتومة تبغى لو عاد العناق.

فرد سرور : وأنا مازلت أشعر بخيانتها وتنتابنى رغبة شديدة في قتلها وأحيانا ينتابنى الندم لسوء معاملتى لها، وأهمالى لوجودها حتى ماتت بحسرتها من شدة الحزن!

فسأله آدم : لماذا تلحد بصدقها ومازلت بعد مرور سنوات طويلة تدور في فلكها عابداً في أتون عشقها؟ لماذا لم تغفر لها وتصدق توسلاتها إليك.

فأجابه سرور: لن تخلق امرأة بعد.. تحب رجلاً بقدر حب ذاتها من خلاله... كلهن حواء يا آدم والتفاحة هدف.

كانت نظراتى لها قاتلة مسمومة رغم يقينى بطهارة جسدها من دنس العهر، ولكن كيف لرجل آخر أن يتطلع في جسدها؟ وارتفع صوت

سرور قليلا متسائلا بغضب لم يفارقه للحظة : كيف هانت عليها رجولتى تدهسها بتلك الطريقة الحقيرة؟

كل الكلمات عاجزة عن وصفها، كل المشاعر غاضبة رافضة لها لوجودها لسماع نداء اسمى بصوتها.

وصارت الخوف حين يتسلل إلى جسدى كنصل بارد حين أرى دهاء عيونها وصوتها البرىء وفى طياته الآف الطعنات السامة، تلك الرائحة الذكية في أطراف ثوبها أتذكرها جيدا كانت تدفئ جوارحى الباردة ومنذ ذلك اليوم الذي علمت فيه بعريها أصبحت أشم عطرها كعفن اللبن المسكوب على الثوب المبلل.

أشعر بالتقزز بقربها وبالغثيان كلما رأيتها. تتحجر الكلمات بحلقى ووجع الخيبة يدمى جسدى بدماء ثائرة عندما أجدها تدعى البراءة والسذاجة، فأضحك ساخرا وأضحك حتى يدمى قلبى من فرط البكاء لسذاجتى، ليس هناك أقذر من أن يأتيك الغدر بطعنة في الظهر وبداخلك كنت تحسب صاحب الضربة هو الأمان.

فاقترب آدم من صدر أبيه وقبل جبينه ومسح من على خده دموعًا تذرف بالوجع وحاول أن يتكلم بموضوع آخر.

فسأله : كيف حال ليلى؟ أشتاق لرؤيتها.

وهنا انفطر قلب سرور بالنحيب، فازداد شغف آدم لمعرفة ماذا أصاب ليلى.

فعاود عليه السؤال : أخبرنى يا أبى ماذا أصاب ليلى؟

فأجابه مخذولا : لا أعلم يا بنى لا أعلم، إن ليلى كانت تبكى ليل نهار لفراقك، ومنذ أسبوع غافلت أمك بثينة وخرجت، وبحثنا عنها في كل مكان ولم نعثر عليها.

اضطرب آدم لسماع خبر اختفاء ليلى، ثم أمسك بيد والده سرور وقال أعدك يا والدى أن أعود لك بأختى ليلى ولن تخذلك الحياة بعد اليوم، ولن أسامح نفسى على فرارى من حبك.

ثم تركه آدم وقرر الذهاب إلى بيت ثريا لعلها تعرف عن ليلى شيئًا.

وفى طريقه إلى الزقاق لمح إحداهن كأنها شمس، فاقترب منها وبالفعل وجدها شمس بوجها الصبوح وبراءة ملامحها، ولكن في خطوتها ومظهرها ثقة لم تكن واضحة من قبل، فأسرع إليها واستوقفها ،

لم تتعرف عليه شمس في بادئ الأمر بعد تغير أحواله ومظهره، ولكن حين سمعت صوته وهو يسألها عن ليلى بدت على ملامح وجهها كل علامات الغضب، وتركته ومشيت غير مبالية به وهى تسب وتلعن

اليوم الذي رأته فيه، فلحق بها يعاود عليها السؤال ويلاحق خطواتها السريعة ،

ثم كرر عليها السؤال ملحا في طلب الإجابة مناديا شمس . . . شمس أين ليلى؟

هى لا تعرف بالزقاق سواكم، وأعلم كم هى تحبك، أخبرينى بالله عليك أين ليلى؟

أعلم أنى حقير ولم أكن رجلاً بحق، أعلم أننى سببت أذى كبيراً وشديداً لك، ولكن ليلى مسكينة لا حول لها ولا قوة، أرجوكِ أخبرينى أينَ أجدها؟

هنا توقفت شمس عن السير ونظرت إليه وقالت: جميل يا آدم هذا الاعتراف من لسانك وفى هذا التوقيت، أنت بالفعل حقير، ولكن هل تتذكر ذات يوم حين أخبرتك أن انتقامى سيكون عسيراً؟ولكنى لم أنتقم بعد!!

فصاح آدم قائلا: ليلى . . ليلى ماذا أصابها؟

فأجابته لا تقلق، فانتقامى لن يكون منك بقدر أن يكون من نفسى، فها أنا ذا يا آدم هل أصلح اليوم لأكون زوجة تتباهى بها أمام صديقاتك؟!

مر عام على طلاقنا، أو بالأصح فراقنا، فلم أكن يوما زوجة لك،

فقاطعها آدم قائلا : أراك قوية يا شمس كنت تخجلين النظر في عينى سابقا! كيف طرأ عليك هذا التغيير؟

تعلمت بعض الكراهية، كم هو أمر صعب ولكن به أنعم بالسلام،

على العموم لا تنشغل بأمرى فلست شمس التي كانت تنتظر مجيئك كجارية، أنا ملكة ولن أكون غير ذلك، فقاطعها : من فضلك يا شمس أين ليلى؟

فأجابته على عجل : ليلى عند زوجتك بنت البشوات ربا هانم، فمنذ أسبوع جاءت ليلى إلينا تبحث عنك فأخذتها وذهبت بها إلى ذلك المكان الذي تسميه مرسمًا وهناك شاهدت زوجتك ربا، والتي رحبت بأختك ليلى كثيرا، فلتسأل زوجتك عن ليلى ولكن من المؤسف حقيقى هو قيام زوجتك بطرد أبيك حين ذهب يسأل عنك وعن ليلى هناك ،

لقد أصبح والدك مخذولا من الدنيا كلها .

فصاح آدم متعجبا : زوجتى؟ أنا لست متزوجًا ولم أتزوج بغيرك، ومنذ رحلت عنكم جعلت لنفسى محرابى الخاص فلتأت معى وتشاهديه .

نظرت إليه شمس ساخرة منه : محرابك الخاص! . . . وليكن، فأنا أيضا جعلت لنفسى محرابًا فيه سكنت وغفلت، وباليقين بنفسى آمنت أن الشمس لا تعود البارحة.

فلترحل يا آدم، فلا يمكن أن تشرق شمسى في حياتك مرة أخرى بعد أن غربت.

وحينئذ دق هاتف شمس فردت بصوت رقيق وابتسمت، فأنصت لها آدم جيدًا، فوجدها تتكلم إلى هاشم، وطال الكلام ثم فوجئ بمجىء سيارة سوداء فارهة الطول تنتظرها على ناصية الزقاق، وأحدثت ضجيجا واضحا في مكان ضيق، فأغلقت شمس الهاتف غير مبالية بوجود آدم، واتجهت بخطوات ثابتة نحو السيارة التي كان يقودها شاب ثلاثينى شديد الجاذبية، فأسرع خلفها آدم يسألها شمس من فضلك لم تخبرينى أين ليلى . .

فضحكت وقالت : أنت المسؤول عن غيابها فهى عند زوجتك ربا، نسيت أن أخبرك بزواجى من هاشم، ثم ركبت السيارة وهى في حالة من نشوة الانتصار، فدنى آدم من السيارة التي ركبتها شمس يتأمل جمال انسيابيتها، ولكنه لم يمض وقت طويل في التفكير بشمس والتغييرات التي طرأت عليها ومراقبة سيارتها، بل كان مشغول بالبحث عن ليلى.

فانطلق مسرعا يبحث عن تاكسى، واستوقفه متجهـا بـه إلى المرسـم، وحين وصل آدم هناك وجده مغلقًا ،

فسأل حارس المكان : لماذا المرسم مغلق؟

فأجابه : أستاذ آدم كيف حالك؟ لم أعرفك في بادئ الأمـر، فـرد آدم بسرعة : لا عليك لا عليك، ولكن أخبرنى لماذا المرسم مغلق؟

فأجابه : لا أعلم، ولكن سمعت أن المرسم انتقل إلى مكان، آخر ولا أعرف أين مكانه بالضبط .

فسأله آدم : هل مازال أمير يعمل بالمرسم؟

فضحك الحارس وقال : أستاذ أمير تزوج بملك هـانم، وكـان يعمـل بالمرسم لوقت قريب ولكن سمعت أنه ترك العمل بالمرسـم في الوقـت الحالى لأنه يستعد للسفر خارج مصر، يقولون إنـه حصـل علـى عقـد عمل مغر جدا ويشـترط في العقـد أن يكـون متزوجـا، لـذلك تـزوج بالأستاذة ملـك سـريعا، وسـيعمل مدرسًـا في إحـدى دول الخلـيج، حظوظ يا آدم بيه . . . . عقبالك يا أستاذ آدم .

فرد آدم وهو مشغول عنه مفكرا فى المكان الـذي ربمـا أن تتواجـد فيـه ليلى :

شكرا لك شكرا لك .

وانصرف آدم لا يعرف ماذا يفعل وكيف يتصرف؟!

وخاصة بعد محاولاته الكثيرة بالاتصال بـأمير، والـذي بـاءت جميعهـا بالفشل، فالرقم غير متاح أو مغلق.

وعاد آدم إلى محرابه في ساعة متأخرة من الليل، وأمسك فرشاته وأخـذ يرسم خطوطًا بدت عشوائية في بـادئ الأمـر، وعنـد بـزوغ الشـمس كانت اللوحة قد اكتملت ووجـد ريشـته قـد رسمـت... ليلـى... تأملها وامتلأت عينيه بالدمع وظـل يتأملـها حتـى ألقـى جسـده علـى الأرض وذهب في سبات عميق فلم ينتبه لصـباح لليـوم التـالى إلا مـع رنات من تليفونه المحمول، والتي أوقظته، فنظر حينها إلى ساعة يـده الجلدية وفوجئ بقرب وقت صلاة المغرب.

وفرك آدم عينيه ثم رد على الهاتف المحمول وفجاءه صوت أمير،

فباغته آدم بسؤال : هل تعلم شيئًا عن أختى ليلى؟

فأجابـه أمـير : أنـا أعـرف بعـض الأمـور ولكـن يجـب أن أقابلـك لنتكلم... وعلى الفور وافقه آدم الرأى وبعد سـاعتين كـان اللقـاء بينهم حارًا على أحدى المقاهى بمحطة الرمل.

وبسرعة بدأ أمير يحكى لآدم ما يعلمه عن ليلى حين قال:

يا صديقى ليتك أخبرتنى من قبـل بوجـود أخـت لـك، لقـد عرفـت بالصدفة حين سألت من تلك الفتاة التي تصطحبها ربا كلما جاءت إلى

المرسم، فالبعض قال إنها أختك بسبب سؤالها الدائم عنك، فكل من تقابله داخل المرسم تسأله بلهفة واضحة : هل تعرف آدم؟

والبعض قال إنها مجرد موديل تستعين به ربا لمعرضها القادم!!

صاح آدم : ماذا . . . ماذا تقول . . . موديل . . . موديل يا أمير .

فأجابه أمير : هذا ما سمعته يا صديقى، فأنت تعلم جيدا أن علاقتى بتلك التي تدعى ربا لا تتجاوز نطاق العمل .

فسأله آدم : وهل تعلم أين تقيم ليلى؟هل تسكن مع ربا؟

فأجابه أمير : لا أعلم . . . ربما لما لا .

فازداد القلق لدى آدم وأخذ يفكر في كيفية الوصول إلى ربا، وهل حقا ليلى أخته هى من تلازم ربا في خطواتها

انتهى الكلام بينهما سريعا، فودع أمير آدم على عجل مبررا بضيق الوقت المتاح لديه لكى يستعد للسفر خارج مصر مع زوجته ملك .

وهناك على حمام السباحة بأحد فيلل الساحل اقتربت ربا من أذن عمر، ثم أحاطته بذراعيها حول عنقه من خلف المقعد الذي يجلس عليه، وبهمس لا يكاد يسمعه إلا بصعوبة قالت له : أعتقد أنك أنجزت عدداً لا بأس به من اللوحات التي تستطيع بها أن تقيم معرضك القادم .

خلع عمر نظارته الشمسية ووضعها على الطاولة بالقرب من زجاجة الخمر الذي يتناول منها قدحًا تلو الآخر ثم اعتدل في مقعده وقال : ليس بعد يا ربا، ولكن ما رأيك لو رسمت ليلى عارية؟

أعتقد أن فتاة منغولية مثلها سينتج عنها لوحات لا حصر لها من أثر رد فعلها عندما أقوم برسم جسدها عاريا.

أجابته ربا : الفكرة جيدة، ولكن ألم يكفك رسمك لها واعتبارها موديل كى تنتقم من آدم؟

فضحك عمر ساخرا : ماذا؟ من هو هذا السفيه الذي أنتقم منه، هو مجرد أحمق تخيل أن ريشته ستعلو رغما عنا، ولكن ريشته لن تتجاوز حدود الأرض، ولن تعلو فوق أحذية أقدامنا. . . . دعك منه يا ربا أريد أن أستمتع قليلا بالماء، فعندى أفكار كثيرة أريد أن أصورها بريشتى ليلا والوقت ضيق.

فأجابته ربا : عندك حق حبيبى.

نسيت أن أخبرك، لقد أرسلت بالأمس دعوات معرضك القادم إلى عدد كبير من رجال الأعمال والفنانين والصحفيين، والكل أبدى سعادته ومتشوقًا لرؤية لوحاتك القادمة.

فضم عمر ربا إلى صدره وطبع على شفتيها قبلة جعلتها تهوى بين ذراعيه، فأمسك بيدها جيدا وأسرعا نحو الماء وقفزا فيه، بينما كانت ليلى تنادى بصعوبة ربه رباه، كان عمر يضحك منها ساخرا.

وفى ذلك الحين كان آدم مشغولا . . لا يفكر إلا في أخته المختفية حتى هداه تفكيره لقرار وهو الذهاب إلى ربا كى يسألها عن ليلى.

وفى مساء اليوم التالى، ذهب إلى حارس المرسم مرة ثانية وسأله عن عنوان الدكتور سليم، والذى أعطاه له بسهولة وفى الحال قرر آدم الذهاب إلى ربا ومواجهتها بما عرفه، وهل بالفعل ليلى تقيم عندها أم لا . . . .

وبمجرد أن وصل آدم إلى العنوان تحجرت قدماه مكانهما، وظل واقفا أمام الفيلا متأملا أغصانها وأشجارها وزهرات الياسمين التي تعبق الشارع بعطرها، ولمح الضوء الخافت الذي يأتى من إحدى الحجرات الجانبية، مازال هو نفس الضوء الخافت فجاءه صوت حارس الفيلا من وراءه يسأله : هل تريد شيئًا يا سيدى؟

فجاوبه آدم مترددا : هل هذه فيلا الدكتور سليم؟

فأجابه نعم : ولكنه غير موجود الآن

فطلب منه آدم أن يقابل ربا . .

فرد عليه : للأسف ربا هانم ستأتى بعد أسبوع، هى مسافرة حاليا، هل يوجد شيىء هام تود أن أخبرها به؟

فأجابه آدم : لا أشكرك. . . أخبرها بسؤالى عنها أنا آدم، أخبرها جيدا باسمى آدم.

ورحل آدم عن المكان ولكن روحه ظلت متعلقة بتلك الحجرة ذات الضوء الخافت، حيث كان يتلصص على جميلة من ثقب مفتاح الباب، كان يرى خيالات ويشم رائحة بخور ويسمع موسيقى عالية جدا لا يفهمها، وبعد مرور ساعات كانت تخرج إليه جميلة وبجوزتها جنيهات، وذات يوم طلب من جميلة :

أمى أمي أريد أن أكون معك بالحجرة، فأنا أخاف وحيدا، فلا أحد يهتم لوجودى، وهذا الكلب في الحديقة أخاف من نباحه عندما تأمره فيروز أن يجرى خلفى، دائما أسقط على الأرض وأنا ألهث من شدة الجرى وأجد فيروز تبتسم وتقول لى لا أصادق الجبناء، أنا أخاف يا أمي من الوحدة بدونك.

غضبت جميلة جدا لسماعها ما يحدث لى، وطلبت من هذا الرجل ذى الشعر الأبيض أن أكون برفقتها في الغرفة، وفى المرة التالية دخلت إلى هذا المحراب ورأيت أمي جميلة، وهى تجلس قرفصاء على منضدة خشبية وبيدها تحمل الخبز وأمامها يقف رجل ذو شعر ولحية بيضاء،

وفى فمه بايب من الأبنوس الأسود ينفث فيه فيملأ المكان دخانًا رماديًا يمتزج مع الألوان فتبدو الغرفة ضبابية .

يرسم جميلة بحرفية شديدة على لوحة كبيرة، يرسم خجلها وهى تبتسم وثغرها وهو يلتهم قالبًا من الشيكولاتة والتي كانت تحبها وتراها من حلوى الأغنياء، فمن المستحيل على الفقراء من أمثالها أن يأكلوا الشيكولاته إلا في الأفراح أو لدى أبناء الذوات من أهل قريتها .

لم تكن عارية في هذا اليوم ولكن . . باعت جميلة جسدها مقابل قالب من الشيكولاتة ! !

وتضاربت الأسئلة برأس آدم، واختلط الماضى بالواقع، وسأل آدم نفسه : هل الدكتور سليم من كان يقنع أمي برسمها مقابل الجنيهات القليلة التي كان يدفعها لها، وهو جعلنى شغوفًا بالألوان؟

ومن تكون ربا؟ هل هى تلك الطفلة التي كنت أتمنى اللعب معها في الحديقة فتجذبنى أمي بيدها لأبتعد عنها؟ كيف وكان اسمها فيروز أتذكر جيدا؟ كان أسمها فيروز .

هل هذا المكان هو المسؤول عن رحيل جميلة أمي ورحيل بهجة عائلتى؟

ومشى آدم بخطوات ثقيلة يفكر في تلك الحياة، في الدنيا تلك الأفة، فالدنيا عاهرة تبيح جسدها في فم الأسياد .

ووصل آدم إلى مكان سكنه، حيث يوجد محرابه، ولكنه لم يرغب بالنوم، فظل جالسا أمام البحر، حتى كشفت الشمس عن نفسها وظهرت في السماء في أبهى صورها، وبدت زرقة السماء صافية ومر بائع للجرائد مناديا : أخبار أهرام. . . . ألخ فاستوقفه آدم واشترى الجريدة وبدأ آدم يتصفح فيها وفوجئ بأعلان كبير عن قرب افتتاح معرض عمر بأكبر جاليرى للعروض الفنية واللوحات، وشعر آدم بوخز في صدره لا يعلم هل بسبب مكوثه أمام البحر لساعات طويلة إذ ربما تسللت الرطوبة إلى جسده أم بسبب ضيق شعر به لمجرد نجاح عمر الأكيد، فألقى آدم بالجريدة على الأرض وصاح : عبيد عبيد نحن عبيد لأمثالكم من أصحاب النفوذ والسلطة.

وظل آدم متجولا بين الشوارع عابثا بالدنيا يركلها بقدمة لعلها تأتى إليه صاغرة، واستمر على هذا الحال حتى جاء اليوم الذي ذهب فيه إلى فيلا الدكتور سليم ليسأل عن ربا وهل عادت من سفرها، وبحث عن الحارس ولكنه كان غير موجود، ولمح الطابق السفلى عبر النافذة مضاء ففتح باب الفيلا ودخل إلى الساحة الواسعة والتي يعرف تفاصيلها من سابق جيدا مناديا : ليلى أنا آدم جئت إليك يا ليلى، وسمعت صوته ربا فهرولت إليه من داخل الغرفة الضبابية تصرخ فيه : كيف دخلت إلى هنا يا آدم؟ كيف تقتحم البيوت بلا استئذان؟فسألها من أنت؟فيروز أم ربا؟

فاندهشت ربا وقالت فيروز! !وهل تعرف فيروز أختى الكبرى، فارتبك آدم وقال : إذن الدكتور سليم والدك هو . . هو . . وتحجرت الكلمات بحلق آدم ولكن حال عقله كان يردد : الدكتور سليم هو من استباح عورات أمي يرسمها، ولكنه سألها : أين ليلى؟ لقد أتت بها شمس إليك ومنذ ذلك الحين لا تعرف عنها شيئًا فارتبكت ربا وقالت : لا أعلم عنها شيئًا أنها غافلتنى ورحلت.

فدارت رأس آدم من شدة الخوف على ليلى ومصيرها وهى لا تدرك من أمور الدنيا الكثير، فتلعثم لسانه وهم بالانصراف إلا أن فضوله ليرى الحجرة التي شهدت خذلان جميلة دفعة إلى الحجرة. . . ففتح بابها ليرى أمام عينيه جميلة. . . لا بل ليلى واختلط الأمر، لا يهم جميلة كانت أم ليلى ولكنها عارية بالفعل، ليلى هذة الفتاة الملائكية على فراش العهر تمسك بلعبتها أو بعروستها وتمشط شعرها وتغنى بطفولة غنوتها داخل بلورة زجاجية شفافة.

فاندفع آدم نحو ليلى صارخا ليلى. . ليلى فانكمشت ليلى داخل جسدها العارى وأخذت تنتفض من الخوف تحاول أن تخفى نفسها عنه، فضمت ساقيها نحو صدرها وأخفت وجهها داخل صدرها واحتضنت عروستها، وشعر آدم بالخزي والهزيمة في عيون عمر الذي كان يرمقة بعنجهية وهو جالس على سلم خشبى وأمامة لوحة يرسم عليها ويلون بفرشاته ملامح وجه ليلى وتفاصيل جسدها غير مبالٍ

بأدم وثورة غضبه أو ببكاء ليلى وفزعها وكأنهم عـرائس ماريونـت في صندوق لعبه يحركهمـا كمـا يشـاء، فركـل آدم بقدمـه الحامـل الـذي وضعت عليه اللوحة فأطـاح بـه بعيـدا ووقـع الحامـل علـى الأرض، ودهس بحذائه اللوحة فتمزقت، مسرعا إلى ليلى ينظر في بـراءة عينيهـا والدموع تملؤ عينيه يسكب عليها من كـل الألـوان ليـوارى عوراتهـا، بينما ليلى تصرخ خوفا من صب الألوان عليهـا ممتزجـة، فخلـع عنـه قميصة يغطيها وأسدله على جسدها صارخا :

إلا أنت يا ليلى

لماذا يا ليلى؟لماذا؟

يا ليت نار الصبر تصب في نفسى السكينة. . . فلا أرانى ذبيحًا في عـين يسكنها الجشع.

بينما ليلى تصرخ هى الأخرى وتبكى، فهى لا تعرف لماذا آدم منزعجًا فبدت على ملامح وجهها كل علامات الحيرة والفزع، فألبسها ثيابهـا وأمسك بيدها وما أن لمسته أنامل ليلـى بخـوف يملـؤ قلبهـا فوجـد آدم بأناملها أمانًا سكن قلبه، فضمها وهدأت نفسها وما هدأت نفـس آدم ولكنه أخذ ليلى في كنفه وعندما فتح باب الحجرة أقسم قائلا :

ونفسى العليلة الهشة بقلة حيلتى لتقسو الحياة على ذاك اللص المـدعو عمر، وسيتذوق كل منكما مرار الترف، وستصب اللعنة على كل من

حاول اختراق حدودى أنا المشتعلة التي لا تنطفئ إلا بخضوع شيطانى لله ساجدا،

ثم أشعل عود ثقاب والقى به في الزيت الخاص بالرسومات وأشعل غيره في الكحوليات التي كانت تملأ أركان الحجرة على الأرض وفوق أرفف خشبية علوية، فهبت النار مشتعلة بلهيبها المتصاعد بينما عمر وربا في حالة من الذهول التام، فصاح فيهما آدم : القاسية قلوبهم أحجار يحق سحقها.

فصرخت فيه ربا : مجنون. . . مجنون. . ماذا تفعل؟

فأجابها : المبادئ حصن الأغبياء ولن أكون غبيا بعد اليوم (لو أعلنت جنونى سأحرق العالم وأجلس على ضفاف نهر جثثكم أبصق فيها).

ثم أغلق باب الحجرة عليهما بالمفتاح الذي كان بالباب، بينما ربا تصرخ وهى تدق الباب : أفتح يا آدم. . . يا آدم.

وخرج إلى الشارع بصحبة ليلى يجر أذيال الخزى والانكسار.

فقالت ليلى والخوف يسيطر عليها :

النار ستحرقهم.

فرد آدم لا تبالى حبيبتى.

فسألته : هل سترسمنى؟

تاملها آدم وقال : لا لن أرسمك، ولكن سأرسم العالم بيضة محها دماء وقشرتها كلمات رثاء.

ووصل آدم بأخته ليلى إلى بيته، إلى بثينة وسرور، وإلى الجدران ،

تلك الجدران التي تبكى شغفا، أنامل صغيرة ترسم زهرات جفت ولكن ظل عبقها بين الشروخ.

ودنا سرور من آدم الذي كان يتأمل أرض الزقاق عبر النافذة وسأله : من أوهمك بعشق الأرض يا آدم؟

جميلة!

الأرض بكاء وبكاء الأرض كراهية والحب نجمة في قلب سماء . .

فأجابه آدم : أعلم يا أبى أعلم هذا جيدا، كل أمر سيمر . . . أجل سيمر وهذا الظل الذي أعيش فيه سأتخطاه مع أول ضوء للشمس.

تمت